

مجموعة نقشجم العلميّة

إصدارة رقم «٧١»

مِنْهَاجُ المُلُوكِ إِلَى مِعْرَاجِ السُّلُوكِ

تأليف

السيّد عبدالله الميرغني المحجوب

الحسيني الحنفي المكي الطّائفي

(١١١٩هـ - ١١٩٣هـ)

رضي الله عنه



تأليف
السيّد عبد الله الميرغني المحجوب
الحسيني الحنفي المكي الطائفي
(١١١٩هـ - ١١٩٣هـ)

ربيع الثاني ١٤٤٦هـ - أكتوبر ٢٠٢٤م

يمكنكم مراسلتنا، عبر البريد الإلكتروني: ngshjm@yahoo.com
أو عبر صفحة مجموعة نقشجم العلمية، على الفيسبوك: facebook.com/ngshjm

آية قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ

[آل عمران: ١٦٤]

بين يديْ الكتاب

الحمد لله الذي منح فيض سرِّه للخُلاصة من خلقه، جوهر السعادة وحبل اللَّه الممدود سيدنا ومولانا محمد المحمود، عليه الصلاة من الملك الكبير المعبود، وعلى آله وصحبه وتابعيه الرُّكَّع السجود.

وبعدُ، فقد سار العلماء الربَّانيُّون على مشكاة النبوة المباركة، واستناروا وأناروا بها، وترجموا ذلك في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، وقيَّدوها في كُتُبِهم فصارت منهلاً صافيًا للسالكين إلى ربّ العالمين، والطالبين مرضاته وقُربه بجميل الأخلاق وفضائل الأعمال وحسن السلوك والتربية، ومنهم الدالُّ على اللَّه مولانا وسيدنا السيد عبد الله الميرغني المحجوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد نهَجَ وأنهجَ معالمَ للسلوك لمن يريد الهداية في عدَّة مُؤلفات لطيفة، منها كتابنا هذا "منهاج الملوك إلى معراج السلوك" شارحًا رسالة له.

وقد عكفت مجموعة نقشجم العلميَّة على تحقيقه وإخراجه، ونسأل اللَّه به النفع العميم، وأن يتقبَّل هذا العمل ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلَّى اللَّهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّمَ.

مجموعة نقشجم العلميَّة

٤ ربيع الثاني ١٤٤٦هـ - ٧ أكتوبر ٢٠٢٤م - السُّودان

منهج العمل ووصف النُّسَخ الخطية

○ نسخ الكتاب ومقابلته على نُسَختين خطيتين، واعتماد نسخة مكتبة مولانا السيد علي الميرغني، وعزو الآيات القرآنية إلى سُوَرِها وبيان أرقامها، وضبطها بالشكل، ووضعها بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ على الرسم الإملائي، وتخريج الأحاديث النبوية وشكلها من دواوين السُّنَّة. ووضعها بين قوسين كذا « » تخريجًا مُبسَّطًا، وعمل تقديم للكتاب، وترجمة للسَّيِّد المُؤَلِّف، وجعل نصّ المتن المشروح بين قوسين ( ) وتحبيره باللون الأحمر، وترصيع الكتاب بعلامات الترقيم المُناسبة، وعزو أبيات الشعر لقائليها وضبطها بالشكل.

○ حصلنا بحمد الله وعونه على نسختين خطتين وهي:

١. نسخة مكتبة مولانا السيد علي الميرغني: وهي نسخة تامة، كُتبت بخط نسخ عادي، وقعت في ١٥ صفحة، متوسط أسطرها: ٣٧ سطرًا، تاريخ تبييض مُؤلفها لها: ٨ رجب ١١٥٤هـ. وبهامشها بعض التعليقات، وأقوال للسيد الرفاعي من "طبقات الشعراني".

٢. نسخة مكتبة بورصا إينيبي التركية: المحفوظة ضمن بالرقم ٤/١٥٩٦، وهي نسخة تامة، كُتبت بخط نسخي، وقعت في ١٩ ورقة، متوسط أسطرها: ١٩ سطرًا، بمقاس: ٢٠x ١٣سم، وتاريخ نسخها: ١١١٩هـ. وبذيلها أقوال السيد الرفاعي من "طبقات الشعراني".

صور المخطوطات المستعان بها

الصفحة الأولى والأخيرة – نسخة مكتبة مولانا السيد علي الميرغني


منهاج الملوك الى معراج
الشيخ مولانا وسيدنا عبد الله بن ابراهيم ميرغني
بسم الله الرحمن الرحيم يا فتاح يا عليم
الحمد لله الذي اختار من شاء من عباده لسلوك سبيل رشاده واصطفى
من اراده من اهل وداده لدلالة الراغب وارشاده واجتبى من اراد
من عباده لحضرة قربه ووداده احمده ان كان هو المراد المريد والطالب
المطلوب والتمس منه صلاته وسلامه على المحب المحبوب محمد الحميد
المحمود المرغوب وعلى اخوانه السادة الانبياء وخلفائه الملائكة الاصفياء
وصحابته المرضيين الاتقياء والمقربين الاولياء وسائر الصالحين والمؤمنين

الصفحة الأولى والأخيرة – نسخة مكتبة بورصا إينيبي التركية

ترجمة المؤلِّف

السيد عبد اللَّه الميرغني المحجوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

هو العلَّامة المحقق، الحجة المدقق، والمحدث الفقيه الأصولي الأديب، أبو السيادة، عفيف الدين، السيد عبد الله بن السيد إبراهيم بن السيد حسن بن السيد محمد أمين بن السيد علي ميرغني، الحسيني المكي الحنفي. ينتهي نسبه الشريف إلى سيدنا الحُسين بن سيدنا علِيّ بن أبي طالب ابن سيدة نساء العالمين وبضعة سيد المرسلين، سيدتنا السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد رسول اللَّه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولد بمكة المكرمة عام ١١١٩هـ، وبها نشأ وتربى في كنف أسرته الكريمة، التي عرفت بين أهل مكة بالعلم والورع، فحفظ القرآن الكريم في حال صباه، وعكف على تحصيل العلم، فأخذ عن والده السيد إبراهيم وجده السيد حسن مبادئ العلوم الدينية واللغوية، كما أخذ عن عمه السيد محمد أمين صاحب التصانيف المفيدة، في الفقه والحديث، المتوفى عام ١١٦١هـ.

وممن تلقى عنهم بمكة المكرمة: الشيخ النخلي الشافعي، وعبد الله بن سالم البصري، وعبد الكريم بن خضر الهندي والقاضي تاج الدين القلعي، الذي درس الكتب الستة بالمسجد الحرام، ومحمد صلاح الدين البرسلي، وتاج الدين الدهان. ثم اجتمع بقطب زمانه، السيد يوسف المهدلي، فانتسب إليه ولازمه.

وقد عاش السيد المحجوب باكر حياته بمكة المكرمة، بين التدريس والإرشاد إلى طريق الرشاد، ثم انتقل إلى الطائف، ونزل بقرية السلامة، وذلك إثر فتنة جرت بمكة المكرمة، فآثر الابتعاد. وعكف السيد المحجوب على نشر العلم وتربية المريدين، وحمل لواء السنة المحمدية، داعيا إلى الله بحاله ومقاله، فعاش مهابا عزيزا في ذاته، موقرا للعلم وأهله. قال عنه تلميذه مرتضى الزبيدي: ووفد إليه العارفون فوجا فوجا، وصار يترقى إلى مصاعد المجد الأعلى أوجا أوجا.

من أبرز تلاميذه: ابناه السيد محمد أبي بكر الميرغني، والسيد محمد يس الميرغني، ومحمد مرتضى الزبيدي، وإبراهيم الزمزي، ومحمد بن زين بالحسن التريمي، ومحمد بن أحمد الشهير بابن الجوهري، وتاج الدين بن محمد سراج ناسخ مخطوطاته، وكتب له مناقبًا، وغير هؤلاء خلق كثيرون.

احتجب بداره ثلاثين سنة، وقد كانت العزلة عن الناس مفتاحا للمعرفة والعبادة والتفكر والاطلاع والتأليف. وقد أثمرت فترة العزلة، بين العلم وضروبه، نتاجا عظيما من المؤلفات الجامعة المفيدة، التي نافت عن الثمانين مؤلفا، اهتم في جلها بتربية المريدين على النهج الصوفي، كما هدفت مؤلفاته إلى إرشاد العامة، وتعريفهم بأصول العقائد والفقه، وأساس السلوك إلى الله تعالى، لا سيما وله طريقة موصلة إلى الله تعالى، وهي الطريقة الميرغنية.

من مؤلفاته: الإيضاح المبين بشرح فرائض الدين، والأربعين حديث، والأسئلة النفسية والأجوبة القدسية، والأنفاس القدسية في بعض مناقب العباسية، والبشائر الحاتمة بأسباب حسن الخاتمة، والتحفة الظريفة في الصلاة على الحضرة الشريفة، والتوسلات الإلهية في الخلوات السمرية والجلوات السحرية، والجواهر الشفافية في بعض مناقب السيدة الصديقية، والجواهر اللمعة في فضائل الجمعة، والجوهرة النقطة في أن الكون نقطة، والدرة اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة، والزهر الفائق في الدقائق والرقائق، والسر العجيب في مدح الحبيب، والسلام والدعاء عند زيارة الحبر ابن عباس، والسهم الداحض في نحر الروافض، والعقد المنظم على حروف المعجم، والفيوض الإلهية في الصلاة على خير البرية، والكوكب الثاقب، واللآلي المفردات في أذكار عرفات، والمعجم الوجيز من أحاديث الرسول العزيز، والمقاصد الفخرى في مناقب السيدة خديجة الكبرى، والمنن الكبرى من الله في بعض فضائل لا إله إلا الله، والموجز العزيز على المعجم الوجيز، والنسمات الأنسية في الأحاديث القدسية، والنفحات القدسية شرح الصلاة المشيشية، والنفحة العنبرية من المشكاة النبوية في آداب المعية، وإتحاف الحلفاء في مناقب الخلفاء، وإتحاف السعداء بمناقب سيد الشهداء، وأربعون حديثا في النكاح، وأربعون حديثا في الوصايا، وبحر العقائد منظومة في أصول الدين، وتحريض الأغبياء على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، وتنبيه الحق في حين الفرق، وجوامع الكلمات في تضمين الأحاديث الحكميات، وجوذاب القلوب لذكر علام

الغيوب، وحاشية على جمع الفوائد، وحكم و معارف وأسرار ولطائف، وذات الجنب في معنى الذنب، ورسالة في جواب الاستفتاء عن هدم قبر أبي طالب وإسلامه أو عدمه، وزهر الرياحين من رياض الصالحين، وسباعيات الحكم، وسلاسة السلسبيل من مربى الزنجبيل، وسواد العينين في شرف النسبين، وشرح أبيات لابن عربي، وعدة الإنابة في أماكن الاجابة، وغاية الفوز والفلاح في أذكار المساء والصباح، وفرائض الدين وواجبات الإسلام لعامة المسلمين، وكنز الفوائد شرح بحر العقائد، ومجالي الأصول لمراقي الوصول، ومختصر المنتهيات، ومراقي الوصول إلى معالي الرسول، ومشارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار، ومشكاة الأنوار في سيرة النبي المختار، ومعراج السلوك إلى ملك الملوك، ومنهاج الملوك إلى معراج السلوك، ونقطة نقط التحقيق في بيان مقالة الصديق، والبدر المنير، والتحفة المغطاة من الرحمة المعطاة، والتيسير في إثبات التدبير، والجوهر العالي في توحيد الغالي، والحكم الكبرى، والدر المتلاليء في توحيد المتعالي، و الدر المنثور في مناقب الخلفاء أولي البيت المعمور، والدر النظيم في توحيد العظيم، والروض الأمثل من المعنى الأول، والسر الأعظم في الصلاة على النبي الأكرم، والسفينة الصغيرة، والسفينة الكبيرة، والفروع الجوهرية في الأئمة الإثنى عشرية، والمراسلات المرغنية بين أحباب الغنية، والنجادة في الولادة، وإتحاف المتقين بمناقب المجتهدين، وإتحاف المجالس في نزهة الجالس، وإيضاح المقصود في تحقيق الشهود، وتدقيق التلوين في تحقيق التكوين،

وتسلية الكبد الحراء بذكر أكباد فاطمة الزهراء، وتشطير إنما الكون ضياء، وجامع الشتات في ما تفرق من الأبيات، وجواهر القلائد لقانص الفوائد، ورفع الحاجب عن الكوكب الثاقب، وسلسبيل الخلان، وكشف الغطا عن زمن أهل الخطا، ولمع برق الألمعية على بيتي المعية، ومختصر لصحيح البخاري، ومناقب سيدنا عثمان بن عفان، ومنتهى السير في الاختصار.

توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالطائف ليلة الجمعة، لثلاث خلون من عاشوراء، عام ١١٩٣هـ، ودفن بمسجده الملحق بداره، بعد أن حفر قبره وهيّأه، وختم فيه القرآن سبعة آلاف ختمة.

[مقدّمة الكتاب]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا فتَّاح يا كريم

الحمدُ لله الذي اختار مَن شاء من عباده لسلوك سبيل رشاده، واصطفى مَن أراده من أهل وداده، لدلالة الراغب وإرشاده، واجتبى من أحَبَّ من عباده لحضرة قربه ووداده.

أحمدهُ أن كان هو المُراد المُريد والطالب المطلوب، والتمسُ منه صلاته وسلامه على المُحبّ المحبوب، مُحمَّد الحميد المحمود المرغوب، وعلى إخوانه السادة الأنبياء، وخِلَّانه الملائكة الأصفياء، وصحابته المرضيين الأتقياء، وآله المُطهّرين الأولياء، وسائر الصالحين والمُؤمنين.

وبعدُ، فلمَّا مَنَّ الله عليَّ بوضع المقدّمة المعلمة بـ"معراج السلوك إلى ملك الملوك"، سنَحَ في الخاطر الفاتر والبال القاصر أن أشرحها شرحًا مُفيدًا مُختصرًا مجيدًا، على طريق الإجمال في التفصيل، والإيجاز في الطويل، ليكون بحسب الوقت وأهله، وقدر الواضع وفضله، وإلا فتفصيلها يحتاج إلى مجلدات، وأقلّ مقتصِدٍ من ذوي النهايات أن يشرحها في مجلدٍ وسَط الغايات، ولكن أرجو الكبير المُتعال أن هذا مع صغره نافع حتى لذوي الكمال.

وقد جرَى الإلهام على العزم بتسميته بعد التمام بـ:

"منهاج الملوك إلى معراج السلوك إلى ملك الملوك"

فأقولُ مع استعانة اللَّه واستمداد فيض رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مُقدّمة:

اعلَمْ أنّ الخلق كلّهم سائرون إلى اللَّه تعالى، وسيرهم مُنحصر في طريقين لا غير، وهما سبيلا السعادة والشقاوة، وعن هذا قال بعض العارفين: إنّ للَّه طرائق بعدد أنفاس الخلائق. لكن كلٌّ من المنهاجَيْن تحت أنواعٌ وشُعَبٌ، ومرجع كل منها إلى حقٍّ أو باطلٍ، فالطريق المُثلى والمنهج الأعلى واحد وإن تنوَّع بتشخُّص سالكيه، وحسب استعدادهم وقوى استمدادهم، واتِّباع سبيل أساتيذهم وارتفاقهم بتلاميذهم، وكذلك الطريق الباطل واصل، ذلك كلّه ما اقتضاه الجلال والجمال من نعوت ذي الكمال وشؤون ذي النوال، فهذا هو السبب في تكثر الشُّعَب، فالكلّ محقّ في الآزال، والبعض مُبطل في دار الزوال، وإلى النظر الأوّل أشار بعض[١] العارفين بقوله:

عَقَدَ الْخَلَائِقُ فِي الْإِلَـهِ عَقَائِدًا   وَأَنَا اعْتَقَدْتُ جَمِيعَ مَا اعْتَقَدُوهُ

---

(١) البيت للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي.

وقال العارف التِّلْمِسَانِيُّ:

لَا تُنْكِرِ الْبَاطِلَ فِي طَوْرِهِ فَإِنَّهُ بَعْضُ كَمَالَاتِهِ
وَأَعْطِهِ مِنْكَ بِمِقْدَارِهِ حَتَّى تُوَفِّي حَقَّ إِثْبَاتِهِ

لكن لا تنكشف حقيقة هذا إلا لمن كُحِّل بأثمد العرفان، وتكحَّل بمراتب الإيقان.

ثمّ أحَبُّ الشُّعَب إلى اللَّه وأرضاها لدى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُعَب السادة الصوفيين الصفويين الصافين المُصفّين المُصطفين، لأنها هي الطريقة المُحمَّدية والسُّنَّة النبوية، فعليك بها وأهلها، لتنال بركة فضلها. ومن جملة شُعَبهم ما أردت شرحه وهو هذا:

قال كَانَ اللَّهُ لَهُ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله) الكلام على البسملة والحمدلة والصلاة معروفٌ مشهور، ومن أحسن ذلك ما هي في كتابي "كنز الفوائد" مسطور، فعليك به إن أردتَ شفاء الغلّ وعدم القناعة بالقلّ.

لكن أذكر ههنا حكمة أجراها اللَّه حينئذ وهي أنَّ حكمة طلَب الابتداء بالتسمية، هو ما اقتضاه اسمه تعالى الأوَّل، فكان اقتضاء مظهره أن لا يبدأ بغيره، ولذا لم يبدأ بغيره، إلا ولم يبارك فيه، وحكمة التثنية بالحمد هي الشكر باللسان على التوفيق بالابتداء باسم

المنَّان، وهكذا قِسْ التشهُّد والصلاة.

(الذي أشرق شمس السعادة) هي الفوز والظفر بالمطلوب من الكمال والنوال، (في فلك) محركةً: مدار النجوم، الجمع أفلاك كمَلَك وأملاك، (الإرادة) هي تخصيص أحد جانبَيْ الشيء بالوجود أو العدم. وعُرفًا: هي الميل إلى طلب الحق بالصدق والإخلاص. ويُقال: إقرار الحقّ بالطلب والإعراض عما سواه، وهذا استعارة وكناية عن ظهور حصول المأمول، بسُمُو صدق الإرادة لا الأفول.

(وأظهر بدر) وهو القمر، (الإفادة) بالفضل والزيادة. الإفادة: إعلام الغير بما لم يعلمه دينًا ودُنيا. والاستفادة: طلب علم ما لم يعلمه. والفائدة: ما استفدت من علم أو مال، وهي من الفيد بمعنى الغنم والظفر. وفي "حاشية الحَمويّ على الأشباه": وَالْفَائِدَةُ لُغَةً: مِنْ الْفُؤَادِ لِأَنَّهَا تُعْقَلُ بِهِ، وَعَلَيْهِ قَوْلُ أُسْتَاذِي[٢]:

مِنْ الْفُؤَادِ اُشْتُقَّتْ الْفَائِدَةُ ... وَالنَّفْسُ يَا صَاحِ بِذَا شَاهِدَةْ

لِذَا تَرَى أَفْئِدَةَ النَّاسِ قَدْ ... مَالَتْ لِمَنْ فِي قُرْبِهِ فَائِدَةْ

(في سماء العبادة) ليجتليه ذووا الجد والجلادة، (وجعل جواهر) جمع جوهرة وهي: الفريدة من المعادن، (المعارف) جمع معرفة، وهي كما قال العارف بالله تعالى سيِّدي أحمد الرِّفاعيّ قَدَّسَ اللَّهُ

(٢) شهاب الدين أحمد بن محمد الخَفَاجي الحنفي المتوفى ١٠٩٦هـ.

سِرَّهُ: المعرفة أنّ تعرف الله بكمال الربوبية، وتعرف نفسك بنعوت العبودية، وتعلم أنّ الله تعالى أوّل كلّ شيء، وبه يصير كلّ شيء، وعليه رزق كلّ شيء.

وقال أبو يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معرفة العوام: معرفة العبودية والربوبية والطاعة والمعصية والعدو والنَّفْس، ومعرفة الخواص: معرفة الإجلال والعظمة والإحسان والمِنَّة والتوفيق، ومعرفة خواص الخواص: معرفة الأُنس والمُناجاة والتلطُّف، ثم معرفة القلب ثم السرّ.

والمُراد بجواهرها الحِكم الإلهيّة والأسرار الربانية.

(في عنق) رقبة (كل عارف) هو: التابع لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باطنًا وظاهرًا. وقد اختلف العارفون في بيانه على أقوال لا تُحصى، ومن أحسنها قول أبي يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العارف على لسانه وصف الربوبية، وعلى أركانه خدمة الديمومية، وعلى نفسه أثر العبودية، وفي قلبه هيبة الفردانية، وفي سرّه طرب الألوهية، وفي روحه شغب الروحانية.

وقالت رابعة العَدَويَّة كَانَ اللَّهُ لَهَا: للعارف ثلاث علامات: بدنه مشغولٌ بالطلب، وقلبه مشغولٌ بالشغَب، وروحه مشغولةٌ بالطرب.

وقيل: قلب العارف مُنوَّرٌ بمصابيح المعرفة، ووجهه مُزيَّنٌ بسيما

الطاعة، وأطرافه ذائبةٌ من خوف القطيعة، وسرّه منقطعٌ إلى الله تعالى من كل علاقة، وعلامة ذلك أن يكون خادمًا بالأركان، ذاكرًا باللسان، مُستأنسًا به في كلّ أوان، وتكون نفسه في الدنيا غريبة، وقلبه في صدره غريبًا، وروحه في جسدة غريبة، وسرّه في خاطره غريبًا، والغريب أبدًا كئيب، فلا يستريح العارف أبدًا من هَمّ الغربة ما لم يصل إلى الحبيب. ومن هُنا يظهر معنى حديث: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»(٣).

وقد ذكرتُ أنا أيضًا تأسيًا بهم أقوالاً عدَّة منها قولي: العارف ذاته ناسوتيَّة، وروحه ملكوتيَّة، وقلبه فردانيّ، وسرّه صمدانيّ. ومنها: العارف مَن لا يشهد غير الله، ولا يرى سواه، ظاهره بالشريعة مُتَّصفٌ، وباطنه بالحقيقة مُختَطفٌ. وغير ذلك.

وكلُّ ذلك في ثمراته، وليس الحقيقة إلا ما صدرت بها، نعم هو في الظاهر كغيره، وفي الباطن لا يعرفه إلا مثله من الأكابر، كما قلتُ: العارف لا يعرفه على الحقيقة غير الله، ولا يشهد إلا مَن أحبَّه مولاه.

وقال أبو يزيد: أولياء الله عرائسُ في الدنيا والآخرة، لا يراهم إلا مَن كان منهم.

(٣) أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه والترمذي وابن حبان والطبراني.

وفي الحديث القدسيّ: «أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي»[٤]، وعن هذا قيل: معرفة العارف باللَّه أشدّ من معرفة اللَّه.

نعم لهم علامةٌ ظاهرةٌ جاء بها صريح الحديث، وهو ما في "الجامع الصغير": «أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ»[٥]، والمُراد: رؤية الغافل بديهة، أما المُتَيقّظ فهو يذكر اللَّه عند كل ما يراه، ويصير الحديث في حقِّه معناه ذوقيًّا وثَمَّ أسرارٌ.

(قلادة) وهي: ما توضع في العُنق من منظوم الجواهر وغيرها زينة، وكل هذا استعارة وكناية.

(وزيَّن) أي: رَوْنَقَ وحسَّن (جِيد) بكسر أوّله أي: عنق (الوجود) أي: الكون والعالم (بوجود ذوي) أي: أصحاب (الشرف) الفضل والرياسة (والسيادة) أي: السُّمُو على الغير، (وتفضَّل بكمال الحُسنى) هي الجنة، (والزيادة) هي: النظر إلى وجه اللَّه الكريم بالبصر في دار النعيم والبصيرة أو بهما في دار الغنى والرميم، في حال الفناء في العظيم، ولكون الثاني مُرادًا هنا قال: (لمن أراد) أي: اختار (حبّه) أي: الميل إليه (ووداده) أي: حُبَّه الخالص.

واعلَمْ أنّ الحُبَّ له تسع مراتب وفي كلّ مرتبة منها له اسم، فأوّلها: الميل إلى المطلوب، فإذا زاد سُمِّي طلبًا، فإذا زاد سُمِّي

---

(٤) ذكره الغزالي في "الإحياء".

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول".

ولعًا، فإذا اشتدَّ وداوم سُمِّي صبابة، فإذا قوي واسترسل بالتثبُّت في المعنى المُراد سُمِّي هوًى، فإذا استولى حكمه على الحدّ بحيث أن يفنى المُحبّ عن نفسه سُمِّي شغفًا، فإذا نمى وظهرت علاماته بحيث أن يفنى المُحبّ عن نفسه وعن فنائه سُمِّي غرامًا، فإذا استحكم وطفحَ وظهر وتمكَّن تمكُّنًا أفنى المُحبّ عن نفسه وعن حبيبه أيضًا بحيث أن يبقى الأمران أمرًا واحدًا سُمِّي عشقًا، وهو الحُبّ المُطلق، وهذا آخر مقامات الخلق فيه، وهي لهم حقيقة، ولا يقال: أنها لله، إلا من حيث وجود الخلق لله، وأما الحُبّ والإرادة فهما له حقيقة قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾[يس: ٨٢]، كذا لخَّصتهُ من كلام العارف عبد الكريم الجِيليّ في "الناموس الأعظم".

ثم قال: وللحُبّ مرتبة أخرى تظهر في الحقّ والخلق، ولهذا تُسمَّى المرتبة الجامعة وهي مرتبة الوُدّ، فإن الله سمَّى نفسه الودود، فهو يودّ مَن يشاء من خلقه، والخلق يودُّونه، فالوُدّ مرتبة مشتركة. إلى أن قال: وهو نهاية مراتب العشق في الظهور لأجل وقوعه من الجانبين.

(أحمده) على (أن جعلني من عبيده) المؤمنين حسًّا وحقيقةً، والصالحين العارفين رجاءًا وطريقةً، أو من عبيد الإضافة تسميةً ونسبةً، وذلك من أشرف صفاتي وأكمل سماتي، كما قيل[٦]:

كَفَى شَرَفًا أَنِّي مُضَافٌ إِلَيْكُمْ   وَأَنِّي بِكُمْ أُدْعَى وَأُرْعَى وَأُعْرَفُ

وما قيل أيضًا[٧]:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا   فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

(وأشكره على فضله) أي: امتنانه وإحسانه (ومزيده) أي: فيضه وإفضاله. (وأُصلِّي وأُسلِّم) أي: أطلب أخصَّ رحمة خالق الموجودات وتحِيَّات سيِّد المخلوقات منه (على سيِّد الكائنات) أي: المُكوِّنات بمعنى المخلوقات.

وفي إطلاق لفظ السيِّد أقوالٌ أصحّها جواز ذلك عليه تعالى وغيره، وقيل: لا يطلق عليه، وعُزي لمالك، وقيل: لا يطلق إلا عليه، وقيل: لا فرق بين كونه مُعرَّفًا أو لا في الجواز، وهو في حقّ اللَّه تعالى بمعنى: العظيم المُحتاج إليه، وفي حقّ غيره بمعنى: الشريف الفاضل الرئيس.

---

(٦) لم نقف على قائله. أورده ابن الملقن في "حدائق الأولياء".

(٧) نسبه أبو عبد الرحمن السلمي في "طبقاته" إلى أبي عبد اللَّه محمد بن إسماعيل المغربي المتوفى ٢٩٩هـ.

(وعُنصر) أي: أصل جميع المخلوقات من (الواصلات) إلى جمال التجلِّيات وجلال التدلِّيات وكمال التنزُّلات (والبائنات) عن صعود الترقِّيات ومشاهدة الساطعات وشهود الحضرات. (وعلى إخوانه الأنبياء) جمع نبي. وفيه اختلاف كالرسول، والأصحّ أنه مَن أُوحي إليه بشرع أُمر بتبليغه أو لا، والرسول مَن أُمر، وقد حقَّقتُ هذا المقصد في "كنز الفوائد".

(والملائكة) جمع ملَك بفتح اللام من الأَلُوكة وهي الرسالة، أو من المُلك لأنهم ملكوا لما أمروا به، والأوَّل أولى، وهم على ما اقتضاه ظاهر الكتاب والسُّنَّة: أنهم أجسامٌ لطيفة نورانيَّة قادرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، إلى آخر ما حقَّقتُ شأنهم في "جواهر القلائد لقانص الفوائد". (المُقرّبين) بعبادة رب العالمين.

(وآلهم) أي: الأنبياء. وفي الآل أقوال، وهي وإن كانت في آل نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتمشَّى غالبها في آل غيره أيضًا.

وآله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتباعه أو أُمَّته أو آل بيته، أو الأتباع والرهط والعشيرة أو الولد أو القوم، أو الأهل الذين حُرِّمت عليهم الصدقة، أو نفسه، ومنه: «لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[٨] أي: داود نفسه. أو أقاربه المؤمنون من بني هاشم والمطلب ابنَيْ عبد

(٨) أخرجه البخاري ومسلم والدارمي وابن ماجه والترمذي والنسائي والطبراني والحاكم.

مناف لأنهم أهلوه، وآل أمر دينهم إليه، كما قال الشافعيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهو من جهة النسب أولاد علِيّ وعقيل وجعفر والعبَّاس، ومن جهة الدين كلّ مؤمن تقيّ. كما في "شرح المجمع". «وَسُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ آلُ مُحَمَّدٍ؟، قَالَ: كُلُّ تَقِيٍّ»[٩]. وأما لفظ: «أَنَا جَدُّ كُلِّ تَقِيٍّ»، فقال السيوطيُّ: لَا أَعْرِفُهُ.

(وأصحابهم) جمع صاحب والمُراد: الصحابي، وفيه اختلافٌ جليل وبحثٌ طويل ذكرته في كتابَيَّ "كنز الفوئد" و"جواهر القلائد".

(والمؤمنين) أي: المُصدّقين بهم وبما جاءوا به من عند اللَّه تعالى.

(وبعدُ) المذكور آنفًا، والكلام عليهم مُستوفًى في "كنز الفوائد"، (فلتعلم أيها الأخ في اللَّه) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، لَا يَدَعُ نَصِيحَتَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[١٠].

واعلَمْ أنَّ الأُخُوة على أقسامٌ: في النسب وهي معروفة، وفي الإسلام كما ورد: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»[١١]، وفي الإيمان كما مرَّ، وفي الإحسان كما في الحديث: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْمُتَحَابُّونَ فِي

(٩) أخرجه الطبراني وابن عدي والبيهقي والديلمي.

(١٠) قال السيوطي: رواه ابن النجّار.

(١١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه وأبي داود والترمذي والنسائي والطبراني والحاكم.

جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»(١٢)، وفي الآخر: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَلِلْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَلِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَلِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ»(١٣).

وفي غيره: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمْ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ»(١٤)، وورَد: «الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى كَرَاسِيّ مِنْ يَاقُوتٍ حَوْلَ الْعَرْشِ»(١٥).

الأحاديث كلها من "الجامع الصغير"، وقد ورَدَ في ذلك شيء كثير، وإنما أطلّتُ فيه لأن الأُخوة في اللَّه هي المقصودة، إذ هي أعلى مراتب الأُخوة وبها يحصل خير الدنيا والآخرة، لما لها من تمام التأثير في الصلاح كتأثير ضدّها في الصلاح، لسريان الصحبة ولميل النفس إلى طلب ما لمُجالسها للتشاكل والتماثل، وبالقرين يعرف المُقارن كما قيل(١٦):

---

(١٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والطبراني وأبو نعيم والديلمي.

(١٣) أخرجه مالك وأحمد الشاشي وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي.

(١٤) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر والمنذري.

(١٥) أخرجه الطبراني وابن عدي والبيهقي.

(١٦) البيت لطرفة بن العبد أحد شعراء الجاهلية، ومن شعراء المُعلّقات العشر.

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

وفي الحديث: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ»(١٧)، وفي غيره: «الْمَرْءُ مِنْ جَلِيسِهِ»، ولذلك أُمرنا بمُجالسة العلماء العاملين والفقراء الصادقين، وترك الأقران الجاهلين، وأهل الأهواء الغافلين، ففي الحديث: «وَأَنْ تُحِبَّ الْمَرْء لَا تُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»(١٨)، وفي الآخر: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»(١٩).

وقال عليٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ:

وَلَا تَصْحَبْ أَخَا جَهْلٍ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيمًا حِينَ آوَاهُ
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ إِذَا مَا هُوَ مَاشَاهُ
وَلِلشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ مَقَايِيسُ وَأَشْبَاهُ

وقال العارف بالله تعالى سيّدي ابن عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في "حِكمه": لا تصحب إلّا مَن ينهضك حاله، ويدلّك على الله مقاله.

وقال الحقير كَانَ اللَّهُ لَهُ: لا تصحب إلّا من يدلّك على الله بِقالِه أو حالِه أو مالِه. وقال أيضًا: صحبة الأخيار تنتج الأنوار وتثمر

(١٧) أخرجه أحمد والطيالسي والحاكم وأبو نعيم والبيهقي.

(١٨) أخرجه أحمد والطبراني وابن عساكر بلفظ: «وَأَنْ تُحِبَّ غَيْرَ ذى نَسَبٍ ...».

(١٩) أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والبيهقي والديلمي.

الأسرار، وتحيي القلوب وتُزيل الكروب.

تنبيـهٌ: قال الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: سُئِل بعض أهل المعرفة عن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ» كيف يغبطهم وهم فوقهم في المحل؟. فقال: لأن الأنبياء شُغِلوا بفرض البلاغ ومُشاهدة الحقّ[٢٠]، وأولئكم لم يُكلَّفوا ذلك، فلم يشغلهم عن اللَّه شيء، فلذلك يغبطهم الأنبياء، وإن كان الأنبياء أعلى وأتمّ.

(الطالب لله) طلب محبَّة وشوق ومودَّة وذوق، لا طلب حاجة ولجاجة، (والمريد) بعزمه الصادق وقصده الخارق باطنًا وظاهرًا، لقرب اللَّه وللاجتلاء (لوجه اللَّه).

وعَرَّف القوم المُريد بأنه: السالك المبتديء الذي يُرى له وجودًا وعملاً، والمُراد بأنه: الملحوظ بعين العناية الربانيَّة المُستغرق باللَّه تعالى، فالمُريد حاملٌ للكد والمُراد محمولٌ عنه الكد.

وسُئِل الجُنَيْد: ما الفرق بين المُريد والمُراد؟، فقال: المُريد تولَّته سياسة العلم، والمُراد تولَّته رعاية الحقّ، فإن المُريد يسير والمُراد يطير، وأين السائر من الطائر؟!.

---

(٢٠) أورد ابن عبَّاد النفزي في رسالة له لفظ آخر: «لأن الأنبياء شُغِلوا بفرائض الإبلاغ ومشاهدة الخلائق... ».

واعلَمْ أنّ السائرين إلى الله على أربعة أنواع: إما سالك مُتدارك بالجذب وهو المُريد الصادق، وإما المجذوب مُتدارك بالسلوك وهو المُراد الفائق، أو مجذوب فقط، أو سالك فقط. وكلام الماتن شاملٌ لما عدا المجذوب فقط، ولا كلام معه، وأشرفهم الثاني.

(والملهوف) واللهيف واللهفان واللاهف المُضطرّ يستغيث (لخمر الله) الخمر خمران: خمر الأواني والدِّنان وهو لذوي الحسرة والخسران، وخمرُ المحبة والعرفان وهو لأُولِي المكارم والإحسان. والأوّل غذاء الأشباح والأركان، والثاني شفاء الأرواح والجَنان، فشتَّان بين خمر رجس من عمل الشيطان، وبين خمر طيّب لذّة للشاربين ساقيه الرحمن، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[الإنسان: ٢١]، وهو من نفحات قنوات ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان:٦]، فناهيك من قَدْر وقُدرة لهؤلاء العباد، الذين يُفجِّرون عينًا يُفخِّمها الملك الجواد، التي لا بداية لها ولا نفاد، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم حقيقةً، واسقنا منها بكأس نبيّك على أوفى طريقة.

وقيل للعارف الكبير والشيخ الشهير أبي الحسن الشَّاذِليّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ: ما شراب الحُبّ وكأس الحُبّ ومَن الساقي؟، وما الذوق وما الشراب وما الرِّيّ؟، وما السُّكر وما الصَّحْو؟.

فقال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب، والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب، والساقي هو المُتولّي الخصوص الأكبر والصالحين من عباده، وهو اللَّه العالم بالمقادير ومصالح أحبابه، فمن كُشف له عن ذلك الجمال، وحُظي به نفسًا أو نفسَيْن، ثم أُرخي عليه الحجاب، فهو الذائق المُشتاق، ومَن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب، ومَن توالى عليه الأمر ودام له الشراب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار اللَّه فهو الرِّيّ، وربما غاب عن المحسوس والمعقول، فلا يدرك لما يُقال له ولا ما يقول، فذلك هو السُّكر، وقد تدور عليهم الكؤوسات وتختلف لديهم الحالات، ويردُّون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، مع تزاحم المقدورات، فذلك وقت صحوهم واتِّساع نظرهم ومزيد علمهم، فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم، وشموس المعارف يستضيئون في نهارهم، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

(والمشغوف) أي: المجنون (بحب اللَّه) أي: بالميل إليه لما له ولما لديه، (والرائم) الطالب (لوصل) أي: قرب (اللَّه) وصل معنى لا حِسّ، وقرب لطف لا مكان، فلا اتِّصال ولا انفصال إلا بالعدل والإفضال.

قال الثَّوْريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وصف القُرب من الله تعالى: أما القرب بالذات: فتعالى الملك عنه وأنه مُقدَّس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتَّصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق، جلَّت الصمدية عن قبول الوصل والفصل، فقربٌ هو في نعته محال: وهو تداني الذات من الذات، وقربٌ هو في نعته واجب: وهو قرب العلم والرؤية، وقربٌ هو جائز في وصفه يخصّ به من يشاء من عباده: وهو قرب الفعل باللُّطف.

وقال الرِّفاعيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: قربك منه بلزوم الموافقات، وقربه منك بدوام التوفيق.

(إن أصل) ضدّ الفرع: وهو ما يبتني عليه غيره، كما أن الفرع ما يبتني هو على غيره، (ذلك) أي: طلب الله وإرادة وجهه، واللهف لخمره، والشغف بحُبّه، والرَّوْم لوصله، (وأساسه) أي: أصله (سلوك) أي: سير (طريق أهل اللَّه) وهم أنبياء الله وعلماؤه وأولياؤه، (ومرجع ذلك) الفرع بأصله، (ومردّه) أي: ما لهُ (إلى) هداية (عناية اللَّه) من عَنَاهُ الأمر يَعْنوه هو يعتنيه عناية: أهمَّهُ، واعتنى به: اهتمَّ.

والمُراد: إرادة اللُّطف به والإكرام في الأزل.

وهذا لا شكّ فيه إذ لولا السابقة لما كانت اللاحقة، فالسوابق عناصر اللواحق، واللواحق فروع للسوابق، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ﴾[الإنسان: ٣٠]، ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[النساء: ٧٨].

وإذا عَلِمْتَ ذلك وتيقَّنتَ لما هنالك (فإن أردتَ السلوك إلى الوصول) إلى قُرب اللَّه والحصول لجمع اللَّه والنزول بربع اللَّه، (فعليك باتِّباع) اقتداء (الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣].

قال سيّد الطائفة الجُنَيْد بن مُحمَّد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصراط المستقيم هو طريق مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال أيضًا: الطُّرُق كلّها مسدودة إلا على مَن اقتفى أثر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال أيضًا: انسدَّ كل باب إلى اللَّه تعالى إلا باب مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا طريق إلى اللَّه تعالى إلا من بابه.

وقال أبو عثمان الحِيرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[النور: ٥٤].

وقال أبو العباس ابن عطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن ألزم نفسه آداب السُّنة نَوَّرَ اللَّه قلبه بنور المعرفة.

ولا مقام أشرف من مُتابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوامره وأفعاله وأخلاقه. وقال أبو حمزة البغداديّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن عَلِمَ طريقَ الحقِّ سَهُل عليه سلوكُه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا مُتابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وأحواله.

وقال الجُنَيْد: علمنا هذا مُقيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة، فمَن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه من المُتأدّبين، أفسدَ مَن يتبعهُ.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بُنِيت أُصُولنا على سِتَّة أَشْيَاء: كتاب اللَّه تَعالَى، وَسُنَّة رَسُوله، وَأكل الْحلَال، وكفّ الْأَذى، وَاجْتنَاب الآثام والتوبة، وَأَدَاء الْحُقُوق.

وقال ذو النُّون المصريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مدار الطريق على أربع: حُبُّ الْجَلِيلِ، وَبُغْضُ الفَانِي الْقَلِيلِ، وَاتِّبَاعُ التَّنْزِيلِ، وَخَوْفُ التَّحْوِيلِ.

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ النَّصْرَابَادِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصْلُ التَّصَوُّفِ مُلَازَمَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِ الْمَشَايِخِ، وَرُؤْيَةُ أَعْذَارِ الْخَلْقِ، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَوْرَادِ، وَتَرْكُ الرُّخَصِ وَالتَّأْوِيلَاتِ.

قال العارف بالله أحمد زَرُّوق كَانَ اللَّهُ لَهُ: هذه الأُصُول التي مَن ضيَّعها حُرِمَ الوصول، وأكثر أهل الزمان على ذلك، إلّا مَن عصَمه

الله سبحانه، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[ص: ٢٤].

قلتُ: هذا في زمنه الذي قد مضى له الآن ثلاثمائة عام أو قريب منها، فكيف بزمننا وأهله الذي قال فيما قبله بمائة ونصف العارف الشَّعْرَاوِيّ(٢١): هذا الزمان دِهْلِيز(٢٢) القيمة. وأقولُ: وأما زمننا فدَرَجها.

وإذا سمِعتَ كلام أئمَّة الطريق في مُلازمة الكتاب والسُّنَّة فدَعْ قول مَن يقول أن الأولياء يخرقون الشريعة، لجهله بمعرفة شأنهم وطريقهم، كيف وقد قال سهل: الولِيُّ مَن توالت أفعاله على المُوافقة.

وقال إمام القوم وسيّدهم أبو القاسم الجُنَيْد لِمَن قالَ لهُ: مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ قَوْمٌ يَقُولُونَ بِتَرْكِ الْحَرَكَاتِ مِنْ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى: إِنَّ هَذَا قَوْلُ قَوْمٍ تَكَلَّمُوا بِإِسْقَاطِ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ عِنْدِي عَظِيمٌ، وَالَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الَّذِي يَقُولُ هَذَا، فَإِنَّ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ أَخَذُوا الْأَعْمَالَ عَنِ اللَّهِ وَإِلَى اللَّهِ، رَجَعُوا فِيهَا وَلَوْ بَقِيَتْ أَلْفَ عَامٍ لَمْ أُنْقِصْ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ذَرَّةً.

وقال بعض العارفين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ: ذرَّةُ استقامة خيرٌ من ألف كرامة. ورُوِي في "كشف أصول الْبَزْدَوِيّ" حديثًا: «تَرْكُ ذَرَّةٍ

---

(٢١) هو أبو المواهب عبد الوهّاب بن أحمد الشعراني المصري الشافعي الشاذلي المتوفى ٩٧٣هـ.

(٢٢) جاء في المعاجم: أن «الدِّهْلِيز هو المدخل بين الباب والدار»، ويمكن قبول «دَهْليز» بفتح الدال لأنها معربة عن كلمة «دَاليز» الفارسية المفتوحة الدال. كذا في "معجم الصواب اللغوي".

مِمَّا نَهَى اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ»[٢٣].

فألْقِ سَمْع جَنانك، ودَعْ قلقلة لسانك، فما ثَمَّ سلوك بغير سبيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا هناك باب يدخل من غير بابه. ولله دَرّ العارف البَكْرِيّ حيث قال:

وأنتَ بَابُ اللهِ أيُّ امْرِىءٍ ... أَتَاهُ مِنْ غَيْرِكَ لَا يدْخُلُ

(باطنًا) بالحقيقة (وظاهرًا) بالشريعة. وقدَّمَ الباطن للاهتمام بشأنه ولعقود أغلب الناس عنه، ولكون الاعتماد عليه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٩]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»[٢٤]، وفي الحديث: «نِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[٢٥]، وفيه: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ»[٢٦].

(وذلك) أي: بيان الاتِّباع (بأن تتعلَّم) على العلماء العاملين وقليلٌ ما هم، قال أبو حَنِيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيسَ فِي الدُّنْيَا أقلّ من فقيه ورع. وقال الحسن لمن قال له: الفقهاء يخالفونك: هَلْ رَأَيْتَ فَقِيهًا قَطُّ؟، إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبُ فِي الْآخِرَةِ.

---

(٢٣) ذكره الطحاوي في "حاشيته على مراقي الفلاح".

(٢٤) ذكره الغزالي في "الإحياء" والرازي في "تفسيره" والسمرقندي في "تنبيه الغافلين".

(٢٥) ذكره أبو طالب المكي في "قوت القلوب" وأخرجه البيهقي في "الشعب".

(٢٦) ذكره الغزالي في "الإحياء".

وأنت إذا تأمّلتَ قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨] انكشف لك الغطاء، ولذا قيل(٢٧):

عَلَى قَدْرِ عِلْمِ الْمَرْءِ يَعْظُمُ خَوْفُهُ
فَلا عَالِمٌ إلا مِنَ اللَّهِ خَائِفُ

(بعد) تَعلُّم علم (التوحيد) وهو العلم بذات اللَّه تعالى وصفاته وأفعاله، وما يجب له ويجوز ويستحيل، ومثل ذلك في حقِّ أنبيائه وما يتعلَّق بالسمعيَّات، وغير ذلك مما هو مرقوم هنالك.

(ما) أي: الذي (تحتاج) أي: تفتقر (إليه في مُعاملاتك) لك ولغيرك لصلاح ذاتك حالاً ومآلاً، (دينًا) من حيث الدين كالطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحجّ وغير ذلك. والدين لغةً: الإسلام. وعُرفًا: وضعٌ إلهيٌّ سائق لذوي العقول باختيارهم للمحمود إلى ما هو خير لهم بالذات. (ودنيا) كالبيع والشراء والنكاح وغيرها.

(باطنًا) كعلم أحوال القلب من التخلية والتحلية وغيرهما، (وظاهرًا) كعلم أحوال الجوارح تزكيةً وتنقيةً (من مشروع) كالفرائض والواجبات والسُّنن والمُستحبَّات (وغيره) كالمُباح والمُحرّم والمكروه والمُفسد.

(٢٧) نسبهُ بعضهم للإمام الشافعي.

(وإذا علِمتَ ذلك) أي: جميع ما لا بد منه (فالْزَمْ العمل بما هنالك) أي: بما في يدك مما علمتَ فإنه يكفيك، ودَعْ ما وراء ذلك واتَّقِ اللَّه فيما علمتَ يُعلّمك بما عملت، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقال الجُنَيْد: إذا صدَقَ المُريد أغناهُ اللَّه عن حفظ النقول بنُورٍ يجعله في قلبه، يُفرِّق به بين الحق والباطل.

وقال الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العلم ليس بكثرة الرواية، بل نورٌ يضعه اللَّه في القلب، يُفرِّق به بين الحق والباطل.

وهذا حال السالك الذي نحن بصدده.

وأما المُرشد: فقال العارف الشَّعْرَاوِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدُّر في طريق اللَّه تعالى إلا مَن تبحَّر في الشريعة، وعَلِم منطوقها ومفهومها وخاصّها وعامّها وناسخها ومنسوخها، وتبَحَّر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك، فكل صوفيّ فقيه ولا عكس.

أقولُ: وكل ذلك وفوقه يحصل بالعلم الوهبيّ.

وإذا لزِمتَ العمل فداوِمْ عليه (واحترس) أي: احتفظ (من نفسك) فإنها أقوى الأعداء لك وأضرّ المُهلكين، لانتصابِها لمُنازعة ربّ العالمين، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

مُبِينٌ﴾[يس: ٧٧]، فاحذرها بمنع مُناها وسياستها لا برضاها.

قَالَ الْجُرَيْرِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: مَنِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ صَارَ أَسِيرًا فِي حُكْمِ الشَّهَوَاتِ، مَحْصُورًا فِي سِجْنِ الْهَوَى، وَيُحَرِّم اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ الْفَوَائِدَ، فَلَا يَسْتَلِذُّ بِكَلَامٍ وَيَسْتَحْلِيهِ، وَإِنْ كَثُرَ تِرْدَادُهُ عَلَى لِسَانِهِ.

وقال ابن عطاء اللَّه: أصل كل معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضا عن النفس، وأصلُ كل طاعةٍ ويقظةٍ وعفةٍ عدمُ الرضا منك عنها اهـ. وعلامة أمرها الإلحاح على ما تأمر به حتى توقعَ فيه، أو يُعين اللَّه على تركه.

ثمّ هي أمّارة: كما قال تعالى حاكيًا عن زُلَيْخا: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[يوسف: ٥٣]، وهي التي تحمل على فعل القبيح من غير رجوع باللوم. ولوّامة: قال سبحانه: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ٢]، وهي التي تحمل عليه تارة وترجع باللوم عليه أخرى. ومطمئنة: قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾[الفجر: ٢٨]، وهي التي اطمأنّت بتركه وصار دأبها الرجوع إلى اللَّه لشهودها وحيائها منه، وهي النفس الشريفة العفيفة اللطيفة النورانية الملكوتية في الأخلاق الرحمانية.

ثم النَّفْس لغةً: الرُّوح كما في "القاموس"، وإليه مالَ بعض المُتكلّمين، وقيل: غيرها وعليه بعضهم، وكلام الصوفية فيه

اضطرابٌ. والظاهرُ أنها: كثيفةٌ ظلمانيَّة دأبها النزول إلى الرَّدى. والروح: لطيفةٌ نورانيَّة شأنها الصعود إلى العُلى. وتحقيقُ ذلك في "كنز الفوائد".

(وشيطانك) من شَطَنَ أي: بَعُدَ، سُمِّي به لكونه بعيدًا من رحمة الله، أي: احتفظ أيضًا من خواطره وتلبيساته ومكائده وآفاته، وكيف لا تحتفظ منه وهو العدوُّ الحقيقيّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر: ٦].

واعلَمْ أنّ ما يلمّ من الخواطر بالقلب أربعة: خاطرٌ وهو من الله تعالى وهو تنبيهٌ لا يؤدي إلى حيرة، وإلهامٌ وهو من المَلَك وهو الحثّ على الطاعة، والثالث والرابع: وسواسٌ، فالثالث من النَّفْس وهو مطالبة الشهوة، والرابع من الشيطان وهو تزيين المعصية.

فعلامة خاطر النفس إلحاحٌ كما مرَّ، وعلامة خاطر الشيطان أن يأتي من باب فإن رددته جاء من آخر وهكذا. وحقّ الأوَّلَيْن القبول، والآخرَيْن الردّ، والورع ترك الإقدام على الكل إلا بإذن الشرع.

(وهواك) أي: احتفظ من مَيْلك إلى مُراد نفسك وآفات حسّك، فإن الهوى عين الهوان كما قيل[٢٨]:

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ

---

(٢٨) نسبهُ الثعالبي في "التمثيل والمحاضرة" لعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر.

فَأَسِــيرُ كُــلِّ هَــوًى أَسِــيرُ هَــوَانِ

ويكفي قول العزيز الحكيم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[الجاثية: ٢٣].

وفي "حاشية الشِّفا" للتِّلْمِسَانِيّ: الهوى مقصور: هوى النفس وهو مُراده، وجمعه أهواء بالمد، والهواء بالمد: الريح، قال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[إبراهيم: ٤٣]، وجمعه أهوية، ومنه قوله بعضهم(٢٩):

سَكَنَ الْهَوَاءُ مَعَ الْهَوَى فِي أَضْلُعِي

فَاسْــتَجْمَعَا وَسْــطَ الحَشَــا نَــارَانِ

(ودنياك) هي لغة: ضدّ الآخرة، سُميّت لدنوّها منها أو لدنوّ شأنها، ففي الحديث: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»(٣٠)، وفي آخر: «اللَّهُ جَعَلَ مَا يَخْرُجُ مِنَ ابْنِ آدَمَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا»(٣١).

والمُراد بالتحفُّظ منها والزهد فيها والرغبة عنها، وعدم الميل إليها والحضّ على ذمّها كثيرًا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[لقمان:٣٣]، وقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[النساء: ٧٧]، وقال: ﴿كَلَّا بَلْ

(٢٩) نسبهُ الصلاح الصفدي في "الوافي بالوفيات" لبليغ الدين القسنطيني.

(٣٠) أخرجه الترمذي والبزار والحاكم وأبو نعيم.

(٣١) أخرجه أحمد وأبو داود والطبراني والبيهقي والديلمي.

تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾[القيامة: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[الأعلى: ١٦].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»(٣٢). وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرَ اللَّهِ»(٣٣). وَفِي أُخْرَى: «إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٣٤). وَفِي غَيْرِهَا: «إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٣٥).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ»(٣٦). وَفِي رِوَايَةٍ: «احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ»(٣٧). وَفِي أُخْرَى: «حُلْوَةُ الدُّنْيَا مُرَّةُ الْآخِرَةِ، وَمُرَّةُ الْآخِرَةِ حُلْوَةُ الدُّنْيَا»(٣٨). وَفِي غَيْرِهَا: «الدُّنْيَا حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الآخرَة، وَالآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ اللَّهِ»(٣٩). وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيا لَا تَصْفُو لِمُؤْمِنٍ كَيْفَ وَهِيَ سِجْنُهُ وَبَلَاؤُهُ»(٤٠).

---

(٣٢) أخرجه ابن ماجه والحكيم الترمذي والبيهقي والبغوي.

(٣٣) أخرجه القضاعي والخطيب البغدادي.

(٣٤) أخرجه ابن أبي عاصم والطبراني وابن عساكر والطبراني.

(٣٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الزهد" وأبو نعيم والبيهقي والضياء.

(٣٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الزهد" والحكيم الترمذي والبيهقي والخطيب البغدادي وابن عساكر.

(٣٧) أخرجه أحمد في "الزهد".

(٣٨) أخرجه أحمد وابن أبي عاصم والبغوي والطبراني والحاكم والبيهقي.

(٣٩) أخرجه الديلمي في "الفردوس".

(٤٠) أخرجه الديلمي في "الفردوس".

وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»[٤١]. وَفِي آخَر: «الدُّنْيا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ»[٤٢]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ.

وقال سيّد التابعين الحسن البَصْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد عبد بنو إسرائيل الأوثان بعد عبادة الرحمن بحبّهم الدنيا. وقال أيضًا: بِئْسَ الرَّفِيقَانِ الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ، لَا يَنْفَعَانِكَ حَتَّى يُفَارِقَانَكَ.

وقال سهل بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأوّل كلّ اسم منه ترك الدنيا.

وروى الحَسَن مُرسلاً: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[٤٣]. وفي الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»[٤٤][٤٥].

ولقد أجادَ القائل[٤٦]:

النَّارُ آخِرُ دِينَارٍ نَطَقْتَ بِهِ
وَالْهَمُّ آخِرُ هَذَا الدِّرْهَمِ الْجَارِي

---

(٤١) أخرجه مسلم وابن ماجه وأحمد وأبو داود والترمذي والبزّار وأبو يعلى والطبراني وابن حبان.

(٤٢) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي.

(٤٣) أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم والبيهقي.

(٤٤) معناه: وإذا وقع في شرّ فلا تخلص منه. شيكَ: أصابه الشوك، وانتقش: خرج الشوك من رجله. "الزاهر".

(٤٥) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه والطبراني.

(٤٦) البيت يُنسب للإمام الشافعي. الدينار آخر أحرفه "نار"، والدرهم آخر أحرفه "هَمْ".

وَالْمَـرْءُ مَـا دَامَ مَشْـغُوفًا بِحُبِّهِمَـا

مُعَـذَّبُ الْقَلْـبِ بَـيْنَ الْهَـمِّ وَالنَّـارِ

فأيُّ عاقلٍ يسمع ما ذُكر فيها ويرغب فيها!، ولو تدبَّر أعظم ما فيها لرآه أخسّ شيء فيها، كما قيل(٤٧):

أَلَـذُّ العَـيْشِ فِـي الـدُّنْيَا جَمِيعًـا ... أَخَـسُّ العَـيْشِ فِيهَـا وَهُـوَ غَـالِي

فَمِـنْ مَلْـذُوذِهَا الفَـانِي نِكَـاحٌ ... وَمَـعْ هَـذَا مَبَـال فِـي مَبَـالِ

وَغَــالِي مَلْــبَسٍ زَاهٍ حَرِيــرٌ ... خــرَا دُودٍ تَأَمَّــلْ ذَا بِبَــالِ

وشَـهْدٌ وَهُـوَ قَـيْءٌ مِـنْ ذُبَـابٍ ... شِـفَا سُـقْمٍ وَأَحْلَـى كُـلِّ حَـالِي

وَمِسْكٌ خَيْرُ طِيبٍ مِنْ دَمٍ مِنْ ... خَـرَاجٌ ذَاكَ يَخْـرُجُ مِـنْ غَـزَالِ

فَهَـذِي أَرْبَـع إِنْ قُلْـتَ لِـي هَـلْ ... لَهَـا مِـنْ خَـامِسٍ فَاسْـمَعْ مَقَـالِي

سِـوَى مِـنْ خسَّة مَرْكُـوب خَيْـلٍ ... وَلَكِــنْ فَوْقهَــا قَتْــل الرِّجَــالِ

وِلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِل(٤٨):

هِـيَ الـدُّنْيَا تَقُـوْلُ بِمِـلْءِ فِيهَـا ... حَذَارِ حَذَارِ مِن بَطشِي وَفَتْكِي

فَـلَا يَغْـرِرْكُمُ حُسْـنُ ابْتِسَـامِي ... فَقَـوْلِي مُضحِكٌ وَالفِعْلُ مُبْكِي

ويكفي ذا اللُبّ هذا الحديث المُشاهَد بصرًا وبصيرةً، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ وَأَكْثَرَ شُغْلِهِ، فَرَّقَ اللَّهُ

---

(٤٧) ذُكر البيت في "نشر المحاسن الغالية في فضل المشائخ الصوفية أصحاب المقامات العالية" لعبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى ٧٦٨هـ ولعل الأبيات له حيث عزاها لنفسه بقوله: قلتُ: ... .

(٤٨) نسبهُ الثعالبي في "يتيمة الدهر" لأبي الفرج السَّاوِي.

أَمْرَهُ، وَجَعَلَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَأَصْبَحَ مَهْمُومًا وَأَمْسَى مَهْمُومًا وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ وَالْعرُوضِ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ وَأَكْبَرَ هَمِّهِ وَأَكْثَرَ شُغْلِهِ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ الْقَنَاعَةَ والْغِنَى فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَكَفَاهُ اللَّهُ هُمُومَهُ، فَأَصْبَحَ مُسْتَرِيحًا»[٤٩].

تذييلٌ أنيقٌ: سُئِل بعض المُحقِّقين عن تصوُّر الدنيا بعجوز شابّة ونحوهما، كما وقع في حكاية كثير من الأولياء، أَهل ذلك حقّ مُشاهَدٌ موجودٌ أم المُراد غير الظاهر؟.

فأجابَ: إن تصوُّر الدنيا بالوجود العَيْنيّ المُشاهَد بصورة آدميّ مُستحيلٌ عقلاً، لكونها مجموع أشياء وأعراض بسائط، وذكر ما لا ينحصر، وقد قام البرهان القاطع على استحالة تداخل الأجسام كما هو مُقرَّر في علم الكلام، وأما ما رُوِي عن الصالحين فمحمول على الوجود الحِسيّ لا العينيّ الخارجيّ، إذ الوجودات خمسة.

وقد أوضحه الغزَّالِيّ وقال: أنه مُختصٌّ به الحاسّ ولا يشاركه فيه غيره، قال: وذلك كما يشاهد المريض المُتيقّظ من الصور التي لا وجود لها خارج حِسّه، كما يشاهد الموجودات الخارجيَّة، وكما تتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة من الصور الجليلة المُحاكية

---

(٤٩) أخرجه البزّار والطبراني وأبو نعيم.

لجواهر الملائكة ونحو ذلك. اهـ مُلخّصًا لفظًا ومعنًى.

أقولُ: وهذا جوابٌ حسنٌ، مع كون المولى قادرًا على تصغيرها وضمِّها، كما جعل معاني العلوم في النقطة، وكما صيَّر الدنيا لبعض أوليائه كالحلقة، وكما جعلها لعزرائيل كطَسْتٍ(٥٠) بين يديه، وكما صيَّر الآدميّ أنموذجها وحاويها، كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ   وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

تذنيبٌ: قال رضوان أَفَنْدِي في "الجمع الغريب": اعلَمْ أن المُلك والشهادة حقيقة بها يكون الشيء ذلك الشيء، ولكل حقيقة من تلك الحقائق صورة مثالية، بها تُرى تلك الحقيقة وتُشاهد في عالَم الملكوت وعالم المثال والغيب، ولكل شيء من عالَم المُلك لسان ملكوتيّ، بذلك اللسان نطق السماوات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١]، وبه تشهد أجزاء الإنسان عليه يوم القيامة وتقول: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[فصلت: ٢١]، حين يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[فصلت: ٢١]، وبه تحدِّث الأرض عما كان فيها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[الزلزلة: ٤]، وبه تسبِّح الأشياء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]، أي: على نعمة الإيجاد والتربية، فبعض جنس

(٥٠) الطَّسْتُ: إناءٌ كبيرٌ مستديرٌ من نحاس يُغسل فيه، وجمعه: طُسُوت.

الشيء يسبّح بلسان الشهادة والبعض بلسان الغيب، ولكون تسبيح بعض الأشياء بلسان الشهادة، ومن شأنه ومن نفى منه أن يكون مسموعًا، لم ينف السماع بل نفي الفقه في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وسقط ما قيل أن الأنسب بحقيقة التسبيح لا يسمعون، والذكر القلبي المنقول عن بعض أرباب القلوب أيضًا بذلك اللسان، والله المُستعان اهـ.

أقولُ: وبهذا البحث يتصحح ما تقدّمه فافهم (واحتفظ من) تغيُّر حالك وفساد صلاحك بخواطر جَنانك وتقلُّب (قلبك) سُمِّي لتقلُّبه من طور إلى طور ومن حال إلى حال، بحسب نظره إلى اختلاف شؤون ذي الكمال من الجمال إلى الجلال، ومن الجلال إلى الجلال.

ومن ثَمَّ كان الصادق يتقلَّب كل يوم سبعين مرَّة، والمُرائي يثبت على حالة واحدة سبعين سنة، كما قاله الجُنَيْد، لكون الصادق ذا قلب والمُرائي بلا قلب.

والمُراد بالقلب: اللطيفة النورانيَّة القائمة بالجسم الصنوبريّ المعروف بالقلب الحسيّ، وقدَّمَ القلب في الأمر بالتحفُّظ منه لأنه العُمدة والمَلك الذي بصلاحه تصلح الرعية وبفساده تفسد، كما قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ

الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[٥١].

(و) إذا احتفظت منه فاحتفظ أيضًا من تفكُّرات (عقلك) وتخيُّلات وهمك، (و) تشوُّفات (روحك) إلى غيره، (و) إنزواء غيره في (سرّك) وركونك به إليه، (و) من صرف (جزئك) فيما ليس لربّك، (وكلّك) إلى غيره من أمور الدنيا والآخرة.

قال ابن عطاء الله: لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى يَسِيرُ، وَالَّذِي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي ارْتَحَلَ مِنْهُ، وَلَكِنِ ارْحَلْ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَى الْمُكَوِّنِ، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[النجم: ٤٢].

وأمعِنْ في قول ابن يزيد: إن لله عبادًا لو بدت لهم الجنة بزينتها مع حجبهم عنه لضجُّوا منها. وقول الجُنَيْد: الغفلة عن الله أشدّ من دخول النار. وكُنْ كمن قال فيه أبو يزيد: طُوبَى لِمَنْ كَانَ هَمُّهُ هَمًّا وَاحِدًا، وَلَمْ يَشْغَلْ قَلْبَهُ بِمَا رَأَتْ عَيْنَاهُ وَسَمِعَتْ أُذُنَاهُ.

وقال سُلطان الزُّهَّاد إبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن أحببتَ أن تكون وليًّا، فلا ترغب في شيء من الدارين، وفرِّغْ نفسك لله وأقبِلْ عليه يقبل عليك.

(وهذا) الاحتفاظ والتحرُّز والاستيقاظ (هو الرياضة) أي: روض النفس وتأديبها وسياستها وتدريبها، (لا ترك الأكل والشرب) بصوم

---

(٥١) أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي.

ونحوه، (أو تقليله) بتدريج وشُبهة. إذ الرياضة: عبارة عن تهذيب النفس وسياستها، وتبديل الصفات المذمومة بالنعوت الحميدة، لا الجوع وترك الأكل والشرب.

نعم (قد يحتاج إلى ذلك) أي: التقليل (الأكثر) من المُريدين (للاستعانة على ما مرَّ) من الاحتفاظ إذ النَّفْس لا توافق على ذلك إلا عند ذبولها وانكسارها وتواضعها وافتقارها، وذلك بالتقليل، فيقلّ شيئًا فشيئًا بحسب الطاقة والقدرة لا الإفراط، فإنه ربما عاد به إلى التفريط، وآل به إلى التخبيط.

وإذا احترستَ واحتفظتَ مما مرَّ فدُمْ على ذلك (ثم سِرْ) أي: توجَّهْ (إلى اللَّه) رائمًا له وطالبًا لوجهه، حال كونك مُستعينًا (باللَّه) ومُبتدئًا باسمه في سيرك إليه، (بروحك) بدأ بها لأنها ذات الشوق الأعلى، لكونها من الملكوت الأجلى، ولكون الشوق مطية المُريد ومعراج المُراد، وبه تسير بقية الذات، وتتحرَّك للمعنى والصفات.

(وسِرّك) أي: لُبّ لُبّك وهو: محل ما يُكتم من الأسرار، (وعقلك) هو معروف مشهور، الخلاف فيه في محلّه مسطور، (ولُبّك) أي: خالص روحك وجسمك، (وقلبك وقالبك) أي: ذاتك كلها، فإن الحقّ غيورٌ لا يحب أن يرى شيئًا من مُريده يصرف إلى غيره، ومع ذلك فإنك لو أعطيته كلّك لم تنل منه إلّا بعضًا.

(وكُنْ) أي: أيها السالك (في سيرك) هذا (مع الله) مُصاحبًا له من ابتدائك، ومُراقبًا له في انتقالك، ومُشاهدًا في ارتحالك، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ»(٥٢). وكما قال الحُسيْن الحَلّاج رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: المُريد الصادق هو الرَّامِي بِأوّلِ قَصْدِهِ إِلَى اللَّهِ، فَلَا يعرج حَتَّى يصل.

(ولله) قاصدًا طالبًا بالصدق والإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة: ٥]. وقال الجُنَيْد كَانَ اللَّهُ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْقُلُوب مِنْ بِرِّهِ، بِحَسب مَا أَخْلَصْتَ لَهُ فِي ذِكْرِهِ.

وقال سُلطان العارفين وتاج العلماء الراسخين علِيّ زَيْن العابدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عبادة الأحرار لا تكون إلا شُكرًا لله، لا خوفًا ولا رغبة. وقال أيضًا: إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوه رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَآخَرِينَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَقَوْمًا عَبَدُوهُ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ.

وقلتُ مُتمّمًا: وقومًا عبدوه شوقًا فأولئك الأخيار. وعن هذا قلتُ:

احْـــــــــذَرْ اللَّهَ لِلَّهِ   تَكُنْ مُتَّقِيًا عَلَى التَّحْقِيقِ
وَأَخْشَـــاهُ لَـــهُ تَقَرُّبًـــا   بِالسَّـــعَادَةِ وَالتَّصْـــدِيقِ

(٥٢) أخرجه مسلم ومالك وعبد الرزاق وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والطبراني وابن السني.

(وأعني) وأُريد (بالسير) المذكور (دوام) أي: استمرار (طاعته) سبحانه فيما أمر ونهى، وذلك بصرف كلّ جارحة فيما طلب صرفها إليه وكفَّها عمّا نهى عنه، (و) دوام (ذكره) وخصّه بالذكر من بين سائر الطاعات، لأنه الركن الأعظم فيما نحن بصدده.

قال الأستاذ أبو القاسم القُشَيْريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الذكر ركنٌ قويّ في طريق الحقّ سبحانه، بل هو العُمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله عَزَّ وجَلَّ إلا بدوام الذكر.

وقال أيضًا: سمعتُ الأستاذ أبا علِيّ الدقَّاق يقول: الذكر منشور الولاية، فمن وُفّق للذكر فقد أُعطي المنشور، ومن سُلِب الذكر فقد عُزِل.

ثم هو يكون أوّلاً بالنفي والإثبات، أي: بلا إله إلا الله، ثم بالجلالة، بعد انتفاء السوى الموهوم بالجهالة، وذلك بعد تحكيم العزلة ودخول الخلوة، فتذكر باللسان مُطابقًا للجَنان، ثم به وبالعقل، ثم به وبالروح، ثم بها وبالسرّ، ثم به وبالجُملة.

فإذا ذكرتَ باللسان ذكرَ معك عالم المُلك، وإذا ذكرتَ بالجَنان ذكرَ معك عالم الملك والملكوت، وإذا ذكرتَ بالعقل ذكر معك العالم الوسط، وإذا ذكرتَ بالرُّوح ذكرَ معك عالم الجبروت، وإذا ذكرتَ بالسرِّ ذكرَ معك عالم اللاهوت، وإذا ذكرتَ بالجُملة ذكرت

معك كل العوالم، وذلك من لطف اللّٰه بك، إذ كل لفظة من ألفاظ ذكرك يكشف اللّٰه لك إذ ذاك عن عظم قدرها الذي لا يحيط به سوى خالقها، إذ هي من جُملة الجذبات التي قال فيها سيّد الكائنات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الْحَقِّ تُوَازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْنِ»[٥٣].

فلو لم تذكر معك تلك العوالم لهلكت بالعُجب، وقد لا يكون شيء من ذلك، إما لعدم الصدق أو لكمال السالك، ثم كلما ذكرتَ بشيء مما ذُكر انتفى عالَمه وما قبله. وهكذا ثَمَّ هذا لا يكون إلّا بالصدق، لا الذكر القلقلي اللساني، ولذلك فُسِّر الذكر بقوله: (أي: عدم نسيانه) سُبحانه.

(مع الشوق) الصادق والعزم الصارم والتقوى. قال القُشَيْرِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: الشوق توهُّج القلب إلى لقاء الربّ. وقال أيضًا: الشوق تعطُّش القلوب إلى لقاء المحبوب.

قال سيّدي أحمد الغَزَّالِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: إذا ذكرته فكُنْ كلّك قلبًا، وإذا نطقتَ به فكُنْ كلّك لسانًا، وإذا سمعتَ فكُنْ كلّك سمعًا، وإلّا فأنت تضرب في حديد بارد.

وقال أخوه حُجَّة الإسلام: حقيقة الذكر لا تتمكّن من القلب إلا بعد عمارته بالتقوى، وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون

---

(٥٣) أخرجه السلمي في "طبقاته" والرازي في "تفسيره".

الذكر حديث نَفْس لا سُلطان له على القلب، ولا يدفع الشيطان.

(والمحبَّة) الخالصة، واختُلف فيها عُرفًا، فقال سَمْنُون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هي صفا الوُدّ مع دوام الذكر. وقال الشِّبْليّ: سُمِّيت المحبَّة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب. وقال أبو عبد الله القُرَشيّ: حقيقة المحبَّة أن تهب كلّك لمن أحببت، فلا يبقى منك شيء.

وقال المُحَاسِبيّ: المحبَّة ميلك إلى الشيء بكُلّيتك، ثم إيثارك إيّاه على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبِّه.

فإذا انتفت العَوالَم وزالت الأغيار فالسير حينئذ هو استحضاره (ومراقبته) وهذا مقام الإحسان، الذي قال فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[٥٤] الحديث.

قال القُشَيْريّ: المُراقبة اجتماع القلب لاطِّلاع الربّ. وقال أيضًا: المراقبة تحقُّق برؤيته وتحقُّق بعبوديته.

(وشهوده) بعين البصيرة بأنه الفرد الذي لا مثيل له ولا نظير له ولا شريك له ولا وزير، المُحيط بكل شيء علمًا وذاتًا ونعتًا.

ولتكن المراقبة والشهود (مع الأدب) الكامل باطنًا وظاهرًا اللائق بالمُنفرد بالكمال، والمخصوص بذي الجلال والجمال، وذلك هو

---

(٥٤) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو نعيم والبيهقي.

الاتِّصاف بحقيقة العبودية والفناء وشهود عظمة الربوبية، والبقاء مع التحلّي بكمال التقصير والعجز، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام: ٩١]، وذلك يكون بسكون القلب والقالب.

(والهيبة) أي: كمال التعظيم والوقار الذي يمنحه لك إذ ذلك الجبَّار، على قدر ما قسم لك من الأقدار. قال القُشَيْرِيّ في "منثور الخطاب في مشهور الأبواب": الهيبة: انخلاع الأوصال لشهود الجلال والتعظيم، إجلال الحقّ بإقلال الخلق، الهيبة: تحيُّر القلب عن كشوفات الربّ، الهيبة: انخناس الوصف عند بوادي الكشف، الهيبة: جمع الأسرار بنعت الانكسار.

وقد أشار إلى رسمها الشيخ الأكبر مُحْيِي الدين ابن عَرَبِيّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ بقوله:

لَيْسَتِ الهَيْبَةُ خَوْفًا إِنَّهَا أَدَبٌ يَعْرِفُهُ العَذْبُ الجَنَى
حَالهَا الإِطْرَاقُ مِنْ غَيْرِ بُكَا وَوُجُودِ الجَهْدِ مِنْ غَيْرِ عنَا

ثم في مقام المُراقبة والشهود تبدو لك العوالم مراقبة، كما مرَّ في الذكر بحسب توجهُّك فيهما، فإذا تمَّ لك مقام المراقبة والشهود، فقد حانت لوائح المقصود، فحيئذ تلوح اللوائح، وتسطع السواطع وتلمع البروق اللوامع، وهكذا إلى ما لا ينحصر.

(فإذا لمعَتْ لك بارقة من بروق حضرته) التي لا كيف يشملها، ولا أين يدخلها، المُقدّسة عن الكيف والأين، المُشار إليها بقاب قوسين، والبارقة جذوة ونور من أنوار نار ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾[طه: ١٠]، ومن لفحات: ((لَوْ كَشَفَ عَنْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ لَأَحْرَقَ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرَهُ))(٥٥).

(فاسكن لها) أي: لا تتحرَّك عند برقها، بل أثبت لها لتملُّكها، وتتهيأ لغيرها، وإلا فتملكك وتحرم سواها، (وتأدَّب) بحسب حالها، و(بما يقتضيه شأنها) ولا تتخبَّط إلّا إذا قهرتك، فلا حول لك ولا قوة حينئذ.

(ثم قل لها) إذا كنت صاحيًا أو أفقت من أخذها لك: (هو) المقصودُ إذ هو المعبود (لا أنت) المُراد لأنك من العباد.

وَقَالَ لِي حُسْنُ كُلِّ شَيْءٍ تَجلَّى
بِي تَمَلَّى فَقُلْتُ قَصْدِي وَرَاكَا(٥٦)

(وهكذا) تفعل دائمًا مع ما يكشف لك، و(لا تقف مع شيء من الأنوار والأسرار) مُتأمِّلاً فيه أو مُستأنسًا به، (التي ستكشف للسائر إذ ذاك) أي: في ذلك الوقت، فإنك إن وقفتَ مع شيء من ذلك حُجبت

---

(٥٥) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه والبزّار وأبو يعلى والطبراني.

(٥٦) البيت لعمر ابن الفارض.

عن المقصود.

قال ابن عَرَبيّ: احذروا الأحوال فإنها سمومٌ قاتلة، وحُجُب مانعة، فإن العلم يستعبدك له، وهو المطلوب منا، والحال إمّا يُسَوّدك على أبناء جنسك لانقيادهم لما قهرتهم به من الوصف الربّانيّ، وإمّا يلذذك بذاتك، وصاحب اللذة محجوبٌ بها، ممنوعٌ عن المُشاهدة.

فاحتفِظْ على هذا الكلام صاعدًا أو راجعًا. (غالبًا) وقد لا تكشف لكمال حاله أو عدم صدقه وزواله، وما ذُكر بخلافه فليس بصواب عند أربابه، وهذه الأنوار والأسرار التي لم يحصها إلا الواحد القهَّار، قد تكشف بالترتيب كما ذكره بعض العارفين لابن عرَبِيّ وغيره، وقد لا، وقد تكون دفعة وقد لا، وقد ينكشف للبعض ما لا ينكشف للبعض الآخر، وقد يبدو لهذا غير ما لهذا، وذاك لاختلاف الذوات والاستعداد والتوجُّهات.

ولم يزل يبدو الانكشاف أو عدمه وأنت في توجُّهك (حتى) تقطع الحُجب كلها ظلمانيَّة ونورانيَّة، كما ورَد: «أَنَّ لِلَّهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَاب مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ»[٥٧].

فحينئذ (تنتهي) أي: يكون انتهاؤك في سيرك (إلى الحجاب) الساتر للغير مُطلقًا. وهو عُرفًا: ما ستَر مطلوبك عن عينك أو قلبك.

(٥٧) أخرجه ابن أبي عاصم وأبو يعلى والطبراني وأبو الشيخ والبيهقي.

وحجاب العزة والعمى والخيرة (الأعظم) من كل حجاب تقدَّم، لكونه لا يقبل القطع والإزالة، لأن ما وراه مخصوص بسيد ذوي الرسالة، وهو الرحمة على عباده، إذ هم ليسوا من ذوي استعداده.

(و) هذا الحجاب الأعظم (هو النَّبِيّ الأكرم) على اللَّه من بني وآدم، (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

واعلَمْ أن هذا الحجاب قد لا يصل إليه كثيرٌ من أكابر الأولياء، وربما ينكرونه، وما ذاك إلّا لعدم استقصائهم في قطع الحُجُب، وقصور قصارهم عن الانتهاء إلى أعلى الرتب، وفي الحقيقة ليس هذا الحجاب إلا عين الوصول إلى ربّ الأرباب. وقد حقَّقتُ هذه الشؤون العُلوية في "النفحات القدسيَّة شرح الصلاة المشيشيَّة".

فإذا وصلتَ إلى هذا الحجاب (فهناك فقِفْ) وقفةَ خائفٍ مُرتاب، ثم كُنْ ممّن تاب وأناب، ورجع وآب عما سوى الأحباب، (وتوَجَّه) بقلبك النورانيّ إلى قلب النَّبِيّ العدنانيّ، مُستمدًّا من فيض استعداده الصمدانيّ، ومُتوجّهًا (بكُلّك إلى مشهد) أي: محل شهود (الذات الفردانية) وهو محل لا محل، ومكان لا مكان ولا زمان، بل لا يدرك إلا بالعيان، ولا يمكن الإشارة إليه ببيان البنان، ولا بترجمة اللسان، (المستوي) أي: المساوي بالمقابلة المُقدّسة (على عرش الرحمانيَّة) وهو مُحمَّد خير البريَّة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فإذا كشف) الله (لك) في ذلك المشهد (عن الحقيقة الصمديَّة) أي: حضرة ذاته الأحدية (المُتجلّية) أي: الكاشفة جمالها وجلالها، والمُولّية نوالها بكمالها (على الصورة) النورانيَّة (المُحمَّديَّة).

(فهناك) تشهد المولى كالعالَم العُلوي والرسول كالسُّفلي ولا شيء ثَمَّ غيرهما، وهناك (تدهش العقول) لما تشاهده مما لا يحويه المعقول والمنقول، (ويحيّر الفحول) لوصولهم إلى ما وراء المأمول، وظهور عظمة الحامل والمحمول، وهذه الحيرة التي أفصح عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «رَبِّي زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّرًا»[٥٨]، وأوضح لها العارف الفارضِيّ بقوله:

وَمَا احْتَرْتُ حَتَّى اخْتَرْتُ حُبَّكَ مَذْهَبًا
فَوَا حَيْرَتِي إِنْ لَمْ تَكُنْ فِيكَ خَيْرَتِي

وقال فيها العاشق السُّودِيّ:

حَيْرَةٌ عَمَّتْ فَأَيُّ فَتَىً   رَامَ عِرْفَانًا وَلَمْ يَحَرِ

وعن هذا قال النُّورِيّ: أعرف النَّاس باللَّه أشدّهم تحيُّرًا فيه.

(ويخرس اللسان) من هيبة ظهور المنَّان، وفي الحديث: «مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ كَلَّ لِسَانُهُ»[٥٩]، (ويسجد الجَنان) الجامع المحاسن

---

(٥٨) هذا الأثر لم نجده فيما لدينا من مصادر ومراجع.

(٥٩) ذكره الملا علي في "المصنوع في معرفة الحديث الموضوع" وقال: قال النووي: ليس بثابت.

والإحسان، وكم من ولِيّ لله كبير الشأن راحَ به الحِمَام[٦٠] ولم يصل إلى هذا المقام.

قال الشيخ ابن عربِيّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ: وكان بدء سَهْل في الطريق سجود القلب، وكم من ولِيّ كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب، ولا عَلِم أن للقلب سجودًا مع تحقُّقه بالولاية ورسوخ قدمه فيها، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه من سجدته، فهو ثابت على ذلك القدم الواحدة، التي يتفرَّع منها أقدام كثيرة، وأكثر الأولياء يرون تقلُّب القلب من حال إلى حال، ولهذا سُمِّي قلبًا، وصاحب هذا المقام وإن تقلَّبَتْ أحواله فمن عين واحدة، فهو عليها ثابت يعبّر عنها بسجود القلب.

ولهذا لما رأى سَهْل في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجَد، وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائرًا، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته، فما وجد أحدًا يعرفها، فإنهم أهل صدق لا ينطقون إلا عن ذوق مُحقَّق، فقيل له: إن في عبادتنا شيخًا مُعتبرًا لو رحلت إليه، ففعل، فقال له: أيُّها الشيخ أَيسجد القلب؟، فقال: إلى الأبد، فوجد شفاه عنده، فلزم خدمته. فاللَّه تعالى يؤتي ما شاء من علمه من يشاء من عباده، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[غافر: ١٥].

---

(٦٠) الحِمَامُ: ككِتابٍ: قَضاءُ المَوْتِ وقَدَرُه. كذا في "القاموس".

وقال في "معراج الأرواح"[٦١]: سجود القلب هو فناؤه في الحقّ عند شهوده إيّاه، فلا تشغله ولا تضرّه الحوادث.

فإذا حصلَ لك أيُّها السالك ذلك، فأشكرهُ على ما هنالك.

(و) إذا سجدَ القلب فحينئذ (تذبُل الأركان) أي: تنكسر الجوارح ويضعف قواها لمُشاهدتها لعظمة مولاها، (و) إذا ذبُلت فحينئذ (يفنى) أي: ينمحي (الإنسان) كلّه، فيذهب من البَيْن في ظهور تجلّي العَيْن، وانمحاق خطور الأَيْن، وهذا المقام مقام الفناء، الذي هو محو الأغيار بشهود السَّتَّار، وإليه ينتهي عُرُوج الأخيار، وهو قَلَّ ما يدوم، وقد يموت فيه بعض العارفين من المُحبّين، وفيه يكون الشطح والتبجُّح، فبعضهم يقول فيه: أنا الله، والآخر يقول: أنا الحقّ، وغيره يقول: سُبحاني ما أعظم شأني، وسواه يقول: لا إله إلا أنا فأعبدون.

وكلُّ هذا ليس إلا لسان حال الحقيقة الربَّانيَّة، لأنهم قد انمحوا بالكُليَّة، وتحقَّقُوا بمقام: «فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَنْطِقُ»[٦٢] كما في الحديث، فمن تحقَّق بذلك كيف ينكر عليه شيء من ذلك!، والحديث صريحٌ بما هنالك.

---

(٦١) "معراج الأرواح والمنهج الوضّاح" لأبي بكر بن سالم باعلوي المتوفى ٩٩٢هـ.

(٦٢) أخرجه البخاري وأحمد والبزّار والحكيم الترمذي وأبو نعيم والبيهقي والخطيب.

وهـذا الفنـاء يأخـذ كـل إنسـان سـار إلـى الحنَّان، (إلّا مَـن أبقـاه الـرحمن) أي: أراد لـه البقاء في ثمرات مقام الإحسان، (وخلع عليه خلـع البقـاء والرضـوان) بـأن حـلّاه بنعـوت بقائـه، لارتضـائه لـه واصطفائه، فيصير باقيًا في فنائه.

وحينئـذ (فيكـون بجمعـه) بشـهود خالقـه (مُشـاهدًا) لـه سُـبحانه، (وبفَرْقـه) بشـهود خلقـه (مُراصـدًا) لعبوديتـه، (كمـا قـال العـارف بـالله سيّدي عمر ابن الفـارض) قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ الفَائِض، مُشيرًا إلـى هـذا المقام:

(وَلَـمْ أَلَـهَ بِـاللَّاهُوت عَـنْ حكـمِ مَظهـري

وَلَـمْ آنَـسْ بِالنَّاسُـوتِ مَظهـرِ حكمَـة)

(وَلَمْ أَلَهَ) أي: أغفل (بِاللَّاهُوت) كطالوت: عالَم السِّرّ، والمُراد: الحضـرة الإلهيَّة (عَـنْ حكـمِ مَظهـري) أي: عـن أحكـام عبـوديتي التـي هـي حكـم ناسـويتي، (وَلَـمْ آنَـسْ بِالنَّاسُـوتِ) كطـاغوت: عـالَم المُلك وهـو عـالم الصُّـوَر والحِسّ والشـهادة، (مَظهـرِ) محـل ظهـور (حكمَـة) اللَّه في مكوناته، أي: لـم آنـس بشـهود الخلق شـهودَ خالقـه، بل دأبي الجمع بينهما، لأُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه.

وهذا مقام الكُمَّل من أولياء اللَّه الجامعيين بين الشريعة والحقيقة، وشهود الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة، القاهرين لأحوالهم،

الذين لا تتصرَّف فيهم الأحوال فلا يشطحون ولا يتبجَّحُون، بل دأبهم الأدب والخوف من العَطَب، ظاهرهم بالشريعة مُتَّصِفٌ، وباطنهم بالحقيقة مُختطفٌ، لا جمعهم يحجبهم عن فَرْقهم، ولا فرقهم يحجبهم عن جَمْعهم، كما قال تعالى شأنه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[النور: ٣٧].

وبهذا صرَّحَ ناصر الدين ابن بنت المَيْلَق في "منظومته"(٦٣) بقوله:

لَهُ لَدَى الجَمْع فَرْق يَسْتَضِيءُ بِهِ   كَالجَمْعِ فِي فَرْقِهِ مَا زَالَ يَلْقِيهِ

وهذا هو المقام الأسلم والأكمل.

قال العارف بالله تعالى أبو الحسن الشَّاذِلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا أردتَ الطريق التي لا لوم فيها، فليكُن الفَرْق في لسانك موجود، والجمع في سرِّك مشهود.

ثم اعلَمْ أن الجمع والفَرْق من جملة اصطلاحات القوم، ومعناهما كما قال القُشَيْرِيّ: التفرُّقة: شهود الأغيار لِلَّهِ، والجمع: شهود الأغيار بالله، وجمع الجمع: الاستهلاك بالكُلِّية وفناء الشعور بِغير الله عند غلبة الحقيقة.

---

(٦٣) منظومته المسمَّاة "حال السلوك" لناصر الدين محمد بن عبد الدائم الشافعي الشاذلي المصري المعروف بابن بنت المَيْلَق المتوفى ٧٩٧هـ. وشرحها كثيرون، ومطلعها:

مَنْ ذَاقَ طَعْمَ شَرَاب القَوْمِ يَدْرِيهِ   وَمَنْ دَرَاهُ غَدًا بِالرُّوحِ يَشْرِيهِ

(ثم بعد هذا السير) إلى اللَّه المُوصل لمقام الفناء، الذي هو عبارة عن فناء رؤية العبد لنفسه بقيام اللَّه به، (يكون السير في اللَّه) الذي هو عبارة عن مقام البقاء وهو في اللَّه (مع اللَّه) معيَّة عرفان ومُشاهدة وعيان، بخلاف المُتقدّمة آنفًا، فإنها معيَّة علم وإيقان وإعانة ولُطف وبيان.

(وذلك) أي: السير في اللَّه عبارة عن انتقال الشهود (من مظهر) جمال (إلى مظهر) جلال، (ومن تجَلِّ) جلال إلى ظهور كمال ومِنّة، (إلى غيره) من قهر ورحمة وقبض وبسط ومنع وعطاء ونحو ذلك. (وهكذا إلى ما لا حدّ) يحصره، (ولا غاية) تحِدّه، (ولا وقت) يقدّره، (ولا نهاية) تُنْهِيه، إذ كُلّ آنٍ هو في شأن، ولا غاية له ولا أوان، فهو الأوّل بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، فشؤونه ونعوته كذلك.

وإلى هذا المقام أشارَ سيّدي ابن عطاء اللهَ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ بقولِه: لا يخرجك عن الوصف إلا شُهُود الوصف. أي: لا يخرجك شهود تجلّيّ وصفه تعالى في شيء إلا شُهُود تجلّيّ الوصف الآخر فيه أو في غيره.

وهذا مقام البقاء الذي هو عبارة عن رؤية العبد قيام اللَّه على كلّ شيء، وظهوره في كل شيء، وهو بمنزلة الأعراف بين مقامَيْ التَّرقِّي والتَّنزُّل، و فيه يُبقِي اللَّه غالب أوليائه لا سيما الأفراد، والباقي فيه

منهم هو العقيم من الأولياء لعدم تولِّيه لعدم الإذن له في الإرشاد، وصاحبه يُدعَى بالعارف.

وهذا المقام أشرف المقامات وأحسنها وأفكَهها وألذّها، وإن كان ما بعده أكمل منه، وإنما كان كذلك لأنه لا يكون فيه إلا الشغل بالمحبوب الأعظم فقط، وذلك الشغل هو روح الأرواح وحياة الأشباح، والنعيم المُقيم الذي لا يُدانيه شيء من الدنيا والآخرة، ولهذا يغبطهم فيه النبيُّون كما مَرَّ.

فناهيك به من مقام، يغبط ذويه الأنبياء الكرام، نسأل الله بنبيّهِ وأنبيائهِ أن يرزقنا ذلك، وحُسن الأدب هنالك.

وأدب هذا المقام سُكُون الظاهر والباطن، ومُحافظة الأركان والسرائر، واتِّباع الكتاب والسُّنَّة، وترك الأهواء والخواطر، وهو أدب المعيَّة الخاصَّة، وقد بيَّنتُ طرفًا منها في "النفحة العنبريَّة شرح آداب المعية".

وقد ذكرَ العارفون فيه شيئًا كثيرًا بحسب ما مُنِحوا، وما أحسن من ذلك قول العارف بالله تعالى سيِّدي أحمد الغَزَّالِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ:

إِذَا صَحِبْتَ الْمُلُوكَ فَالْبَسْ مِنَ التَّوَقِّي أَعَزَّ مَلْبَسْ
وَادْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى وَاخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ

ثم إِنْ أبقاكَ المليك العَلَّام في هذا المقام، فأشكرهُ على التمام وكِلْ إليه الزمام، واسكن في الخِطَام(٦٤).

وإلَّا (فإن أرادك) لمقام التنزُّل وهو السير عنه به، واختارك (للإرشاد) لخلقه إليه وهو مقام العالِم الوارث المُحمَّديّ، (هَيَّئك) بإسعاده، (وجهَّزك) بإمداده (للسير عنه) أي: عن لزوم شهوده فقط، (له) أي: لأجل القيام بحقِّه في إرشاد خلقه، (فتنزل) عن مقام المُشاهدة المَحْضَة (به) أي: بمُصاحبته شُهودًا (على رفرف) له معانٍ كثيرة، وهو كناية عن مُركَّبٌ لطيف الشأن من مراكب فيوض (العرفان) والإيقان.

فتنزل بذلك التبيان حال كونك (مُرشدًا مَن شاء من الإخوان) إليه ودالّهم عليه، (وراجعًا في أنفاسك إليه) لأنه مرامك ومُرادك ما لديه، فكيف لا ترجع إليه وتتوب مما سواه، وإن كان أجلّ طاعة وأعظم عبادة.

وإلى هذا أشار سَهْل بقوله: التوبة فرضٌ على العبد في كل نَفَس. وقال أيضًا: التائبُ مَن يتوب عن غفلته في كلّ لحظة. وذلك لأن قصد العارف المُشاهدة، فإذا غفل عنها أو شاركها بغيرها وجبَ عليه الرجوع إليها، لما أن ما سواها كبائر ورِدَّة عنها، كما أشارَ إلى ذلك

(٦٤) الخِطامُ: كُلُّ مَا وُضِع فِي أَنْفِ البَعِير ليُقْتَاد بِهِ. "تاج العروس من جواهر القاموس".

سُلطان العُشَّاق فارضِيّ الآفاق بقولِه:

وَلَـوْ خَطَـرَتْ لِـي فِـي سِـوَاكَ إِرَادَةٌ
عَلَى خَاطِرِي سَهْوًا قَضَيْتُ بِرِدَّتِي

وقد قال سيّد الطائفة الجُنَيْد بن مُحمَّد عَلَيْهِ رَحْمَةُ الْمَلِكِ الْأَمْجَدِ: لو أقبلَ صادقٌ على اللَّه ألف سنة ثم أعرضَ عنه لحظة، كان ما فاتهُ أكثر مما ناله.

وإذا كان كذلك فكيف لا ترجع إليه مُستمدًّا مما لديه، (ومُعتمدًا في جميع شؤونك عليه) الشؤون جمع شأن وهو: الخطب والأمر، (ومُشاهدًا) بعين بصيرتك (له) تعالى (في حركاتك وسكناتك) من قولهم: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ اللَّه فيه، (وجميع أوقاتك) من لمع برق، ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيت اللَّه قبله وبعده.

وكل ذلك من فيض قوله سُبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٣]، وكيف لا تشاهده أبدًا وهو المشهود الموجود، الذي ليس معه شيء من الوجود، «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ»[٦٥] وهو الآن على ما عليه كان، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن: ٢٦].

وقال بعض العارفين[٦٦]: الأَكْوَانُ كُلّهَا مَا شَمَّتْ رَائِحَةَ الْوُجُودِ.

---

(٦٥) أخرجه النسائي والحكيم الترمذي والحاكم.

(٦٦) المقولة للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربيّ.

وقال الآخر[٦٧]:

مُـذْ عَرفْـتُ الإِلَـهَ لَـمْ أَرَ غَيْـرًا ... وكَـذا الْغَيْـرُ عِنْـدَنَا مَمْنُـوعُ

وقال غيره[٦٨]:

اللَّهَ قُـلْ وَذَرِ الْوُجُـودَ وَمَـا حَـوَى ... إنْ كُنْـتَ مُرْتَـادًا بُلُـوغَ كَمَـالِ

فَالْكُـلُّ دُونَ اللَّهِ إنْ حَقَّقْتَـهُ ... عَـدَمٌ عَلَـى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ

وَاعْلَـمْ بِأَنَّـك وَالْعَـوَالِمَ كُلَّهَـا ... لَـوْلَاهُ فِـي مَحْوٍ وَفِـي اضْمِحْلَالِ

مَـنْ لَا وُجُـودَ لِذَاتِـهِ مِـنْ ذَاتِـهِ ... فَوُجُـودُهُ لَـوْلَاهُ عَـيْنُ مُحَـالِ

فَالْعَـارِفُونَ فَنَوْا بِـهِ لَـمْ يَشْـهَدُوا ... شَـيْئًا سِـوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَـالِي

وَرَأَوْا سِـوَاهُ عَلَـى الْحَقِيقَـةِ هَالِكًا ... فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالِاسْتِقْبَالِ

والمُشـاهدة عُرفًـا: وُجُـود الحـقّ بـلا تهمـة. وهـو معنـى قـول بعضهم[٦٩]: شُهُودُ العَيْنِ بِلَا أَيْن.

وإذا تحقَّقت عدم السوى فلا شغل لك حينئذ إلا مُشاهدة المولى حال كونك (متأدِّبًا) بكمال الأدب خوفًا من السلب والعَطب.

قال العارف بالله تعالى علاء الدولة السِّمْنَانِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: ومَن لم يحسن الأدب بعد الوصول والدخول في الحضرة العُظمى لا يأمن الرجوع إلى القهقري، ولا يمكنه التمتُّع بالطهارة الكبرى. وقد أيقنتُ

---

(٦٧) لم نقف على قائله. أورده ابن عجيبة في تفسيره "البحر المديد".

(٦٨) البيت لأبي مدين التلمسانى.

(٦٩) المقولة لصاحب "الرسالة القشيرية" عبد الكريم بن هوازن القُشَيْرِيّ المتوفى ٤٦٥هـ.

أنَّ مَن لم يصبر على مُخالفة النَّفْس والهوى ولم يتَقِّ عن صحبة شياطين الإنس والجنّ، واستماع كلامهم ومطالعة كُتُبهم، لا يستحق للتربية والإرشاد، ولا يصحّ له دعوى الشيخية، لأنه ليس من ورثة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإن كان صاحب التجلّيات الصوريّة والنوريَّة والمعنويَّة، لأنِّي شاهدتُ بعض المجذوبين أنهم شرفوا بالتجلّيات، وتركوا حتى هتكوا حرمة الشريعة. إلى آخر ما قال.

وَقَالَ أَيْضًا: وَلَا يَأْمَنُ السَّالِكُ عَنِ الرُّجُوعِ الْقَهْقَرِي فِي الْحَضْرَةِ الْعُظْمَى، وَلَوْ حَصَلَتْ لَهُ الطَّهَارَةُ الْكُبْرَى، إِلَّا بِالْخَلَاصِ عَنْ سِجْنِ مَزْبَلَةِ الْبَدَنِ الْمَجْعُولِ الْمُسْتَلْزَمِ لِحَدَثِ حُدُوثِ عَالَمِ الْكَوْنِ، وَالْفَسَادِ الْمُعَبَّر عَنْهُ بِالدُّنْيَا، وَلِأَجْلِ هَذَا السِّرّ أُمِرَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩] أَيْ: الْمَوْتُ الأَخِيرِ الِاضْطِرَارِيّ، وَقَدْ صَلَّى بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ الْغُفْرَانِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي أَمَا نَزَلَتْ فِي حَقِّكَ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ٢]، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[٧٠].

وَقَالَ سُلْطَانَ العَارِفِين سَيِّدِي عَبْدُ الْقَادِرِ الْكِيلَانِيّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ الصَّمَدَانِيّ: أَعْطَانِي اللَّه ثَلَاثِينَ عَهْدًا وَمِيثَاقًا أَنْ لَا يَمْكُرَ بِي، فَقِيلَ لَهُ:

---

(٧٠) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والنسائي وأبو يعلى والطبراني وأبو نعيم.

هَلْ أَمِنْتَ بَعْدَ ذَلِكَ؟، قَالَ: لَا، بَلْ حَالِي بَعْدَ الْعَهْدِ كَقَبْلِهِ.

وإن كان هذا شأن سلاطينهم في الأدب وخوف العطب، فكيف يظن الجاهل بهم خرق الشريعة؟!، وليس عمودهم إلا هي ولا علامتهم إلا اقتفائها.

قالَ ذُو النُّون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: علامةُ العارف ثلاث: لا يطفيء نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم فينقض عَلَيْهِ ظاهرًا من الحِكم، ولا تحمله كثرة نِعَم اللَّه عَلَى هتك أستار محارم اللَّه.

وقال أكبر مَن أُنكِر عليه بذلك الشَّيْخ مُحْيِي الدِّين ابْن عَرَبِيّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ:

مَا نَالَ مَنْ جَعَلَ الشَّرِيعَةَ جَانِبًا شَيئًا وَلَوْ بَلَغَ السَّمَاءَ مَنَارُهُ

وتمَّمتُ ذلك قائلاً:

بَلْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا إِذَا لَمْ يَرْعَهَا حَتَّى وَلَوْ فَاقَ الْوُجُودَ فِعَالُهُ
أَفَلَا تَرَى إِبْلِيس أَكْثَرُ مَنْ عَبَدَ لِلّهِ حَقًّا قَدْ هَوَى مِشْكَارُهُ

وإذا علِمتَ هذا فاعلَمْ أن ما يكون منهم ممّا يتوهّم أنه خلاف الشرع، فإمّا صدَر منهم في حال سُكرهم وهم فيه معذورون، أو في حال صَحْوهم ولهم فيه اصطلاحات أو مُكاشفات، فسلِّمْ لهم فالقوم أهل عناية، وخاملهم في الوصف لا ينحصر.

وإذا كان كذلك فتأدَّبْ (بما يقتضيه مقامك) أي: ما أقامك الله فيه من الحال العرفانيّ والفيض الربَّانيّ.

والمقام عُرفًا: ما يُقام فيه بلا تحوُّل. والحال: ما يُتحوَّل. ويُقال المقام: استيفاء حقوق المُكلَّف به على التمام، والحال: ما يرد على القلب من غير تعمُّل (في ذلك) الوقت (مما أولاك) ومنحك (مما هنالك) أي: من الأدب اللَّدُنِّيّ الحاصل بالعلم الوهبِيّ.

قال الشيخ عبد الوهَّاب الشَّعْرَاوِيّ أَمَدَّهُ اللَّهُ بِمَدَدِهِ السَّمَاوِيّ: ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحَّر فيها، أعطاه الله تعالى هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حدٍّ سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآدابًا ومحرَّمات ومكروهات وخلاف الأولى، نظير ما فعله المُجتهدون، وليس إيجاب مُجتهد باجتهاده شيئًا لم تصرِّح الشريعة بوجوبه، أو من إيجاب وليّ الله تعالى حُكمًا في الطريقة لم تصرِّح الشريعة بوجوبه، كما صَرَّح بذلك الإمام اليافعِيّ وغيره اهـ.

قلتُ: وليس هذا بمنكر بل هو مصداق قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، وحقيقة معنى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[٧١]، وليس ذلك

(٧١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" والبيهقي.

إلا بالطريق المذكور.

وعن هذا قال أبو يزيد: ليس العالِم مَن يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً، بل العالَم مَن يأخذ علمه من ربّه، أي: وقت شاء بلا تحفُّظ ولا درس. وهذا هو العالَم الربَّانِيّ. وقال أيضًا: أخذتم علمكم ميتًا عن ميتٍ، وأخذنا علمنا من الحيّ الذي لا يموت.

وهذا هو علم الباطن الذي قال فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عِلْمُ الْبَاطِنِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُكْمٌ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»(٧٢).

وقد كان أحمد بن حَنْبَل وابْن مَعِين يختلفان إلى مَعْروف الكَرْخِيّ ويسألانه، ولم يكن مثلهما في علم الظاهر، فيُقال لهما: مثلكما يفعل هذا؟، فيقولان: كيف نفعل إذا جاءنا أمرٌ لم نجده في كتاب الله ولا سُنَّة رسوله؟، أي: بحسب دركنا، وإلّا فقد قال سبحانه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]، فما لم ندركه أدركناه بغيرنا، وقد قال المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِلُوا الصَّالِحِينَ»(٧٣) اهـ.

فإذا علِمتَ ذلك فمن جُملة الآداب الإعراض عن سائر الأحباب وعدم الالتفات إلى الأسباب، والاعتماد على مُسبِّب الأسباب.

---

(٧٢) أخرجه الديلمي وأبو عبد الرحمن السلمي وابن الجوزي في "العلل".

(٧٣) ذكره أبو طالب المكي في "القوت" والغزالي في "الإحياء". وقال صاحب تخريج الإحياء: رواه الطبراني.

(ومن ذلك شكرك له) أي: صرف جميع قوى باطنك وظاهرك في طاعاته، وهمَّك وعزمك وجِدّك في عباداته، ونهوضك ولزومك في التزامك لمشاهداته (في سائر) أي: جميع (أنفاسك).

فإن كُلّ ما لَكَ وعندكَ وفيكَ نِعمٌ أنعمَ بها عليك، وقد عرَّفَك ذلك، وأشهدك قربه وأولاك ممّا هنالك، فكيف لا يجب حينئذ عليك شكره في كل نَفَس، بل في كل لمحة وطرفة وخطرة.

قال سَهْل بن عبد اللَّه: الأنفاسُ معدودةٌ فكُلّ نَفَس يخرج بغير ذكر فهو ميت.

وقال ابن عطاء اللَّه: حقوقٌ في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوقُ الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حقٌّ جديد وأمر أكيد. فكيف تقضي فيه حقّ غيره وأنت لم تقض حقّ الله فيه؟!. وقال أيضًا: ما من نَفَس تبديه إلا وله فيك قدرٌ يمضيه.

وعن هذا قال سيّدي أحمد الرِّفاعِيّ قَدَّسَ اللَّهُ سِرَّهُ: شرط الفقير أن يرى كل نَفَس من أنفاسه أعزّ من الكبريت الأحمر، فلا يضع في كل نَفَس إلا أعزّ ما يصلح له.

ثم هو عُرفًا كما قال السَّرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشكر: أن لا تعصي اللَّه في نِعَمِهِ. وهو معنى قولهم: صرف العبد جميع ما أنعمَ اللَّه عليه إلى ما خُلِق له. وقال القُشَيْرِيّ: الشكر: الاعتراف بالعطية

والانصراف عن الخطيئة.

والأنفاس جمع نَفَس بالتحريك وهو: الهواء الصاعد من الجوف للتنفُّس. وقال بعضهم في عدِّها: الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، في كل ساعة ألف نَفَس، وفي كل نَفَس طرفتان، وفي كل طرفة خطرتان في القلب إما طاعة أو معصية.

(و) من جملة الآداب أيضًا: (طرح) أي: رَمْي (ضرب أخماسك) أي: حواسك الخمس الظاهرة والخمس الباطنة. نظمها بعضهم في بيتين فقال[٧٤]:

وَسَمْعٌ ثُمَّ إِبْصَارٌ وَشَمٌّ   وَذَوْقٌ ثُمَّ خَامِسُهُنَّ لَمْسٌ
خَيَالٌ ثُمَّ وَهْمٌ ثُمَّ فِكْرٌ   وَذِكْرٌ ثُمَّ حِفْظٌ فَهِيَ خَمْسٌ

وجمعها وإن هي خمستان لأن أقلّ الجمع اثنان.

(بأسداسك) أي: في جهاتك الستّ وهي: أمامٌ وخَلْف ويمين وشمال وفوق وتحتٌ، وهذا كناية عن ترك صرف الهَمّ والتفكُّر والعزم والالتفات إلى جهة من الجهات، وتسليم الأمور إلى سيِّد السادات ومُدبِّر الكائنات وباريء المخلوقات، فهو اللطيف بخلقه والخبير بجُندِه، والقائم بأمره والقائم بقهره، فأيُّ تدبير لك واختيار؟!، والفعَّال هو الواحد القهَّار.

---

(٧٤) لم نقف على قائلها. أوردها السيوطي في "الكنز المدفون والفلك المشحون".

وهذا مقام التفويض والاستسلام والرضا بفعل الحكيم العلَّام، وهو حقيقة العبودية التي هي أعلى مراتب العَبْديَّة، الذي يصير العبد حُرًّا خالصًا، وللفيوضات قانصًا، ويكون اللَّه كافِيه ومُتولِّيه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣].

وقال حَبِيب العَجَمِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن أوقعه اللَّه في ميدان التفويض، يزفّ إليه المُراد كما تُزَفّ العروس إلى بَعْلِها.

(وإذا منحك ذلك) المقام (فهو نهاية ما يمنحه) الملك العلَّام (لأمثالك) من العارفين الكرام، (فأشكره على ما هنالك) ما عندك من ذلك.

(إذ) تعليلية (هو) أي: ذلك الممنوح (وراثة) أي: مَخْلَف (الأنبياء) أي: هم بنُو الآخرة فلا يخلفون إلّا ما يصلح لها، كما لا يخلف بنو الدنيا إلا ما هو لها. ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»[٧٥]، وقال: «إِنَّا مُعَاشِر الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»[٧٦].

(وخلافة) أي: وراثة (الأصفياء) من الصِّدِّيقين الأسخياء، (وبُغْية) أي: مطلب (الأولياء) جمع ولِيّ، وهو الموالي لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باطنًا وظاهرًا. (وطِلْبة) أي: مطلوب (الأتقياء) جميع تقِيّ من التقوى وهي عند الفقهاء: اجتناب ما حَرَّمَ اللَّه. وأما عند الصوفية

---

(٧٥) أخرجه البخاري في "تاريخه" وابن ماجه وأبو داود والترمذي وابن حبان والطبراني وأبو نعيم.

(٧٦) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن حبان والبيهقي.

فقال القُشَيْريّ: التقوى: حفظ الحواس مدى الأنفاس، التقوى: تنزيه الوقت من مُوجبات المقت.

وأقولُ: هي على ثلاثة مراتب، فما ذكره الفقهاء للعوام، وما ذكره القُشَيْريّ للخواص، وتقوى خواص الخواص: اتِّقاءُ ما سِوى اللَّه للَّهِ.

(نسأل) نطلب (اللَّه أن يمنحنا) يعطينا (ذلك) المذكور قبل يوم القبور ويوم بعث النشور، (ويسلك بنا أحسن المسالك) أي: ويسير بنا أحسن الطُّرُق إليه، (ويعيننا على ما هنالك) مما يُولِيه من ذلك.

(وقد حصلَ التمام) مما سبق فيه الكلام، (بعد وُرُود الإلهام) من حضرة العزيز العلّام.

والإلهام لغةً: إيقاعُ شيء في القلب. وعُرفًا: إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخصّ اللَّه به بعض أصفيائه. والصُّوفِيَّة تُسمِّيه الخاطر الحقَّانِيّ، وهو لا يوجب العمل لا على صاحبه ولا غيره، بل يجوز له الأخذ به، والورع الترك إلا بإذن الشرع كما مرَّ.

ولذا قال أبو سُلَيْمَان الدَّارَانِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُ: أنَّها لتقع النكتة من نكت القوم في قلبي أيامًا، فأقول لها: لا أقبلك إلا بشاهدَيْن عدلَيْن الكتاب والسُّنَّة. وقال غيره: لي خاطر لم يكذب قط، وما عملتُ به قط.

(بتسميته) أي: ذلك المساق (بمعراج) أي: سُلَّم (السلوك إلى الله (ملك الملوك)، وقد تحقّق هذا الإلهام في معنى هذا الكلام، كما تحقَّقَ في تسمية شرحه بـ"منهاج الملوك" أي: طريق سلوكهم إلى العروج لمليكهم. وإنما سَمَّاهم الملوك لأنهم كذلك حسًّا ومعنًى دينًا ودُنيا وأُخْرَى. كما قال اليَافِعِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيهم:

مُلُوكٌ عَلَى التَّحْقِيقِ لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ
مِنَ المُلْكِ إِلَّا اسْمهُ وَعِقَابهُ
أُولَئِكَ أَهْلُ لِلوَلَايَةِ نَالَهُمْ
مِنَ اللهِ فِيهَا فَضْلهُ وَثَوَابهُ

وقال أبو مَدْيَن الغَوْث أَغَاثَنَا اللَّهُ بِهِ:

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةَ الفُقَرَاء
هُمُ السَّلَاطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالْأُمَرَاء

وفي "الجامع الصغير": «اتَّخِذُوا عِنْدَ الْفُقَرَاءِ أَيَادِيَ، فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٧٧]، فناهيكَ بهم من مُلُوك، تصرَّفوا في المُلك وأناروا الملكُوت، وأطاعهم ذا العزة والجَبَرُوت.

هذا (والسَّلامُ) أي: التحيّة والإكرام من المليك العلَّام بالاستمرار والدوام (على خَيْر الأنام) مُحمَّد سيّد الأكابر والعِظَام، (و) على (آله

(٧٧) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء".

وصحبه (الغُرّ) جمع الأغر بمعنى: الأنور، ومنه: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ»[٧٨]. وأصل الغُرَّة: قطعة بياض في وجه الفرس. (الكرام) أصلاً وفرعًا وذاتًا ونعتًا وحَسبًا ونَسبًا.

(هذا) أي: خُذْ ما مرَّ واسمَعْ قولي، (وواضع الكُلَيْمات) مجازًا لا حقيقةً وصورةً لا معنًى، (فقير اللَّه الغَنِيّ) على الإطلاق أو الغَنِيّ بالخَلَّاق، (عبد اللَّه) اسمه (بن إبراهيم) بن حسن نسبه (مِيرْغَنِيّ) لقبه، (الحُسيْنِيّ) نسبة شرفٍ إلى الحُسَيْن بن علِيّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، (يلتمسُ) يطلب (الدعاء) له (ممّن وقفَ عليها) أي: الكُلَيْمات (بالاستقامة) في سائر الحالات، (والسلامة) من جميع الآفات، (والسَّلامُ) عليكم ورحمة اللَّه وبركاته، وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

وقد كان تمامُ تبييض هذا الشَّرح وقت الضُّحَى يوم الاُثْنَيْن، ثامِن عشرين رَجَب الفَرْد من شُهُور عام ألف ومائة وأربع وخمسين [١١٥٤هـ]، بيد مُؤلِّفه المَاتن المذكور، جعلَهُ اللَّه ممَّن له الصَّوْلَة يوم النُّشُور، والدَّوْلَة إذا بُعْثِر مَنْ في القُبُور، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:١٨٠ـ١٨٢].

(٧٨) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والبزّار وابن حبان والبيهقي والخطيب.

[مُلحق]

قال العارف الشَّعْرَاوِيّ في "طبقاته" من ترجمة العارف الشيخ أحمد الرِّفاعِيّ كَانَ اللَّهُ لَهُمَا: وكان يقولُ: إنَّ العبد إذا تمَكَّن من الأحوال بلغَ محلّ القُرب من الله تعالى، وصارت همَّته خارقةٌ للسبع السماوات، وصارت الأرضُون كالخلخال برجلِهِ، وصار صِفة من صفات الحقّ جَلَّ وَعَلَا لا يعجزه شيء، وصار الحقّ يرضى لرضاه ويسخط لسخطِهِ.

قال: ويدلُّ لما قلناهُ ما ورَد في بعض الكُتُب الإلهيَّة يقولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: يا بني آدم أطيعوني أطعكم، واختاروني اختاركم، وارضُوا عني أَرضَ عنكم، وأحبُّونِي أحبّكم، وراقبوني أراقبكم، وأجعلكم تقولون للشيء: كُنْ فيكُون، يا بني آدم مَنْ حصلت له حصل له كل شيء، ومَن فتَّهُ فاتهُ كلّ شيء.

قلتُ: وقوله: وصارَ صِفة من صفات الحقّ لعله يُريد التخلُّق والاتِّصاف بصفاتِه تعالى من الحُلم والصَّفح والكرم، لأنه لا يصلح لأحدٍ أن يكونَ عَيْن صفات الحقّ فهو كقولِهِ: «فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَنْطِقُ»، وما أشبه ذلك اهـ.